THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

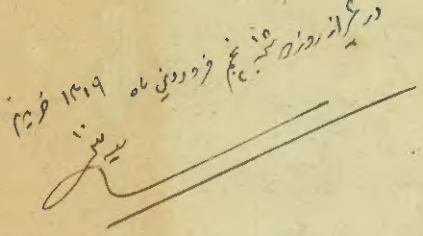

فهرست کتاب تاریخ السلطان سلیم خان مع السلطان الغوری

	صحیفه
ذکر النواب فی البلاد وهم الکشاف الموجودون فی زمن السلطان الغوری	۰۰۰
ذکر ارسال القاصد من طرف السلطان سلیم الی السلطان الغوری	۰۰۳
ذکر ارسال القاصد من طرف السلطان الغوری الی السلطان سلیم	۰۱۰
ذکر التقاء الجمعین وابتداء الحرب بینهما	۰۱۱
ذکر قتل السلطان الغوری	۰۱۴
ذکر اجتماع العسکر بالعسکر المقیم بمصر	۰۱۸
ذکر کتابة مرسوم من السلطان الغوری الی السلطان طومانبای	۰۲۴
ذکر خروج السلطان سلیم الی مصر	۰۰۰
ذکر التقاء طومانبای مع جانبلاط السیفی	۰۲۷
ذکر تعدیة السلطان سلیم الی البر الجیزه	۰۲۸
ذکر السبب فی القبض علی السلطان طومانبای	۰۴۳
ذکر قتل السلطان طومانبای	۰۶۷
ذکر صفات السلطان طومانبای	۰۹۳
ذکر تولیة الکشاف ومشایخ العربان من طرف السلطان سلیم	۱۱۰
ذکر خروج الغزالی نائب الشام وسلطنته بها	۱۱۰
ذکر قتل الغزالی بالشام وموت خیربك بمصر	۰۰۰
	۱۱۳
	۱۲۰
	۱۲۸

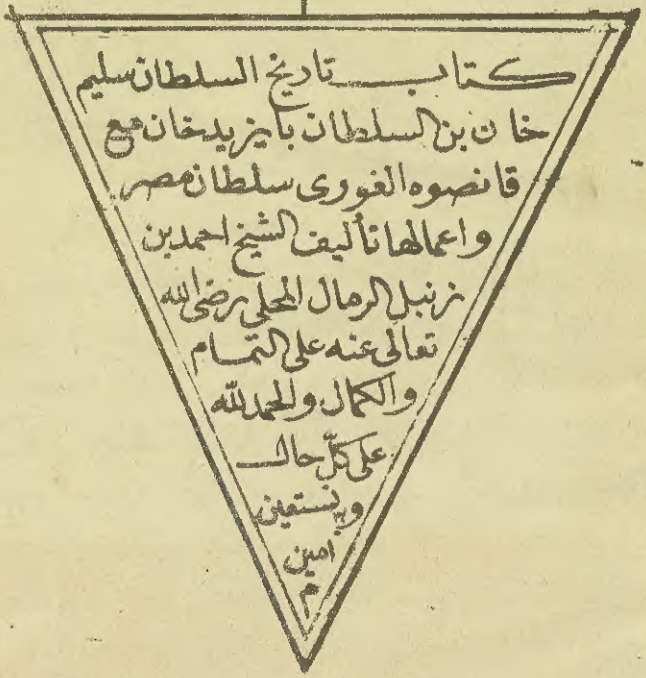
كتاب تاريخ السلطان سليم
خان بن السلطان بايزيد خان مع
قانصوه الغوري سلطان مصر
واعمالها تأليف الشيخ احمد بن
زنبل الرمال المحلي رضي الله
تعالى عنه على التمام
والكمال والحمد لله
على كل حال
ونستعين
امين

906.1
Ibn G

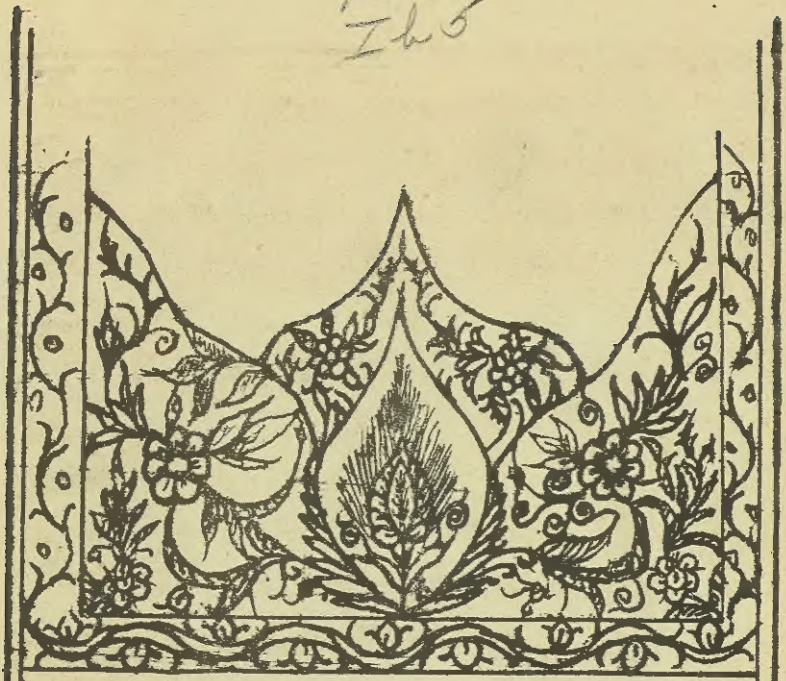

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم هذه رسالة مشتملة على غزوة السلطان الاعظم والخاقان المعظم مالك رقاب الامم صاحب السيف والقلم خليفة الله فى العالم مولى ملوك العرب والعجم فارس ميدان الشجاعه حارس بنيان الشهامه قاتل الفراعنه والجبابره كاسر الاكاسره والقياصره مكمل الدولة العثمانية ممهد القواعد السلطانيه السلطان بن السلطان السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى سلطان مصر واعمالها فكان خروجه من مصر فى يوم السبت سادس عشر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وتسعمائة وكان امراء دولته اولهم سودون العجمى امير كبير واركماس امير سلاح واميرمجلس وسيدى محمد بن السلطان

الغورى
54853 G

الغوري امير اخور كبير وسودون الدوادار رأس نوبة
النواب وانس باى حاجب الحجاب قانصوه بن السلطان
جركس وتقطباى نائب القلعة وقانصوه كرت وطومانباى
دوادار كبير وتمر الزردكاش وجانبلاط ابو ترسين ثانى
بك الخازندار وازبك المكمل ومرزمك الناشف وابرك
رأس الجلبان واقباى الطويل وبيبرس ابن عم السلطان
وامير كرتباى الوالى والامير علاء رأس القرانصة الشجعان
والامير قانصوه الفاجر والامير قانصوه ابو سنه والامير
قانصوه رجله فكان هؤلاء الاثنان وعشرون اميرا اصحاب
الطبلخانات فى مصر لهم الامر والنهى والحكم مثل السلطان
وكان كرتباى الوالى اعظمهم حرمة واقومهم كلمة لشجاعته
وفروسيته ومقاومة الشجعان والابطال فى حومة الميدان
وسيأتى ذكر طرف لما كانوا عليه رحمة الله تعالى عليهم اجمعين
آمين

ذكر النواب فى البلاد

وهم الكشاف فاول النواب نائب قطيه كان قانصوه رجله
واما القدس الشريف وغزة والرملة وما هنالك من الضياع
فكان المتولى على جميع ذلك الامير دولتباى واما صفد
وترابلس الشام وبيروت وصيدا واعمالها فكان النائب عليها
الامير تمراز الاشرفى واما دمشق فكان نائبها اصلان بن
بداق ولما حماه فكان نائبها الامير قنبردى الغزالى واما حلب
فكان نائبها جانبردى وعنتاب نائبها يونس بن اقبية واما
قلعة الروم فكان نائبها ابا يزيد وكانت اضنه وجميع بلاد ابن عشر
واعمالها الى ديار بكر يحكم فيها علاء الدولة والى حين ينتهى الى ناحية
الروم يحكم فيها محمود بن رمضان وكان علاء الدولة يحمل
المال الى مصر من جميع حكمه وبلاده وهو الذى كان سبب

الفتنة بين السلطان سليم وبين الغوري وغيرك ايضا الى
ان حصل ما حصل من القتال بين الفريقين ان ربك هو يفصل
بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين واما الكشاف فكان
أسيوط فيها برسباى الاشرفى ومنف كاشفها قانصوه
العادلى والفيوم وابهنسا كاشفهما جانم الاشرفى ودمنهور
مع بونس البدوى والمحلة مع الماس وكان مشهورا بالظلم
واما الثغور البحروسة فكان نائب الاسكندرية قضابردى
ونائب دمياط على باى واما مشايخ العربان فى الصعيد الاعلى
فكان ابن عمر الامير على فى جرجا واولاد الاحدب فى الشرق
وشيخ عزالة حماد بن خبير فى الجيزة والامير حجازى بن بغداد
بالمنوفية وشيخ البحيرة كان الجويلى واما الغربية كان من
نواحى سنهور حسن بن مرعى وكانوا على هذا الترتيب فى زمن
الغورى رحمة الله عليهم اجمعين وكان فى الشرقية احمد بن
بقر وكان قليل الخير سيرته سيئة ونرجع الى خروج السلطان
الغورى من مصر فلما وصل الى غزة قام بها ثلاثة ايام فشكت
الرعايا للسلطان من نائب غزة فعزله عنها وهم عليه غضبه
على فعله وظلمه وزجره غاية الزجر وبعد ذلك رده اليها
لكونه ابن عمه فورد على السلطان مكاتبة وهو مقيم بغزة
من عند سيباى نائب الشام يذكر فيها الذى يعرضه المملوك
على المسامع العالية اعلاها الله تعالى وادامها ان العبد سمع
بان السلطان يريد السفر الى قتال ابن عثمان وان المملوك يقوم
بهذا الامر ويكون السلطان مقيما بمصر ويمد المملوك بالعساكر
المنصورة والذى يعلم به مولانا السلطان ان خيرك ملاحق
علينا ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين فرد عليه

السلطان ها نحن قد جئناهم بانفسنا ثم امر بالرحيل بالجيوش
والعساكر وهم يموجون كالبحر الزاخر والسحاب الماطر
فرسانا كالعقبان الكواسر ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر
فالقى الله تعالى فيهم الفتنة فكان كل من الاعيان يتمنى هلاك
السلطان حتى يكون هو السلطان فبهذا الموجب هلكوا اجمعين
ويبعثون على نياتهم ومن غريب صنع الله تعالى ان السلطان
الغورى كان له مرمة الاحاذق فكان كل حين يقول له السلطان
انظر الى من يلى الحكم بعدى فيقول حرف السين فكان السلطان
يعتقد انه سيباى وكان كلما كتب سيباى للسلطان بما يفعله
خير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بانه معه
وانه ملاحى على ابناء جنسه ويحرضه على المجئ الى اخذ مصر من
الجراكسة والسلطان الغورى لا يقبل من سيباى نصيحة حتى
نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته وكان ما كان ولم يتمكن
سيباى من ملاقاة السلطان الا على سعسع وهى قرية من
قرى الشام وحضر سيباى قدام السلطان وقدم تقدمة
عظيمة لها قدر وقيمة فشكره السلطان على فعله شكرا زائدا
بعد ان خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على احد من النواب
غيره وكل ذلك والسلطان معتقد ان الخيانة انما هى من
سيباى وما قصده الا اخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف
السين ولا يظن ويخطر فى فكره ان السلطان سليما يقدر
يدخل ارض مصر ابدا لما يعلم من شجاعة الجراكسة ولم يمكنوا
احدا من اخذ بلادهم وما دروا ان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وكان السلطان
الغورى يعلم ان سيباى بطل من الابطال لا يخطر الموت
على باله فانه كان فارسا مناع وبطلا شجاع ذا عزم شديد

وبأس مديد فكان السلطان لا يحسب لاحسابه واما خير بك
فانه لم يكن السلطان يحسب له حسابا لما يعلم من جبانته وعدم
شجاعته فأخذه من لا يكترث به وكان سيباى من مماليك السلطان
قايتباى وكان رجلا يعد برجال وهو الذى عمر المدرسة
التى بدمشق المعروفة بمدرسة سيباى وهى اذا طلعت
من سويقه باب الجابية وانت طالب الى دار السعادة تكون
على يسارك ووقف لها الاوقاف ورتب لها الخيرات رحمة
الله عليه قال الناقل وهو الشيخ احمد بن زنبل الرمال المحلى
الجامع لسيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن
عثمان فان السلطان سليم كان له اخ اكبر منه يسمى السلطان
احمد وكان حاكم برصه وكان اخوه قوه قود حاكم المغنيسا
والسلطان سليم اقبل ان يتسلطن كان حاكم طرابزان ولكنه
كان ذا همة عالية فى طلب الملك والرياسة على اخوته فالهمه
الله تعالى بزواج ابنة ملك التاتار خان ليكون ظهرا له فتزوجها
ثم تجرد بعد ذلك لاخذ الملك من ابيه لما سمع من الجواسيس
الذين كانت تأتيه بالاخبار بان اباه السلطان بايزيد ضعيف
على موت وانه ارسل لولده احمد يحضره ليقلده الملك من بعده
فخاف احمد من اخيه سليم لما يعلم من طلبه الملك لنفسه فتأخر
عن المجئ فجرد سليم العساكر على ابيه فلما سمع ابوه ذلك اخذته
الغيرة وامر بالخروج لملاقاته فخرجت العساكر ووقع الحرب
بين الفريقين فكانت الكسرة على السلطان سليم فانهزم واخذت
نزر دخانته بجملتها فهرب الى الكوفة فدخل عند رجل يقال له
كمال اغا وهو دزدار القلعة فاضافه ومكث عنده مدة
أيام فشكى له السلطان سليم مما جرى له وما ذهب منه من
المال والرجال وهو متحير فى امره وقد قصد اخذ الملك من ابيه

قبل

قبل ان يعطيه لاخيه احمد فلم يصح له ذلك فقال له كمال اغا
عندنا من مال ابيك شئ كثير متحصل وكان يريد ان نرسله له
لخذه وتقوى به ففعل كما قال له كمال اغا وجمع له عسكرا اكثر
من الاول وكان السلطان سليم لا يتوقف في جمع العسكر
لا على رومي ولا على عجمي بل كل من اختار ان يكون من عسكره
قبله ويعطيه الجامكية ويجعله من عسكره فجمع عسكرا كثيرا
وجرد على ابيه ثانيا يريد القسطنطينية وكانت عساكر ابيه
كلهم مالوا الى السلطان سليم لما يعلمون من علو همته واما
ابوه السلطان بايزيد فانه كان رجلا مباركا من اولياء الله
تعالى لا يحب العظمة ولا التجبر وكان رأس عسكره اغا
اليكنجرية يونس اغا فلما وصل الخبر الى السلطان بايزيد بان
ولدك سليما جرد عليك ثانيا امر العسكر بالخروج لقتاله
ولده فلم يطعه احد من عسكره فجاء السلطان سليم الى ان وصل
الى مدفن ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه فدخل الوزير
الاعظم وكان اذ ذاك فرهاد باشا على السلطان بايزيد واخبره
بذلك واعلمه بان العساكر كلها مالت الى السلطان سليم لما يفضوله
لما يعلمون من تعففك عن العصمة الملوكية وانت تعرف ما يترتب
على ذلك فامره السلطان بايزيد ان يقول لهم السلطان يولد
عليكم ولده احمد فابوا ذلك وقالوا ما نريد الا سليما كلمة
واحدة فخرج السلطان بايزيد يريد الكوفة بماله وعياله
وان يقيم هناك الى ان يموت ودخل السلطان سليم الى
القسطنطينية فجلس على تخت الملك فلم يسافر ابوه الا يومين
ومات رحمة الله عليه في سنة ٩١٨ واما اخوه السلطان احمد
فانه لما ارسل خلفه ابوه ليقلده الملك جاء الى ان وصل اسكدار
فلم يجسر ان يدخل القسطنطينية خوفا من اخيه ومن العسكر

لانهم على غرض السلطان سليم فلما تولى السلطان سليم ارسل
لاخيه احمد خلعة وردده الى مكانه وايضا ارسل خلعة الى اخيه
قورقود الى مملكته وهى مغنيسا بيرا ناضول واستقر هو فى
الملك ثم ارسل خلف كمال اغا الذى كان بالكوفة وجعله اغا
اليكنجرية ويونس اغا جعله وزيرا وجعل فرهاد باشا باشا
روم ايلى ثم امر بقتل اخوته واستقل هو بالملك فهرب اخوه
قورقود الى مصر واستجار بالغورى فاجاره فارسل السلطان
سليم يطلبه من الغورى فأبى ان يمكنه منه فاشتدت العداوة
بين الغورى وبينه حتى وقع ما وقع قال الراوى ومما وقع
بينهما من شدة العداوة ان السلطان سليما لما غزا على شاه
اسماعيل سلطان العجم وجاء بالعساكر من على البيرة وكان
نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى
فأمر علاء الدولة اهل مرعش ان لا يبيعوا على عسكر السلطان
سليم شيأ مطلقا من المأكل ولا من غيرها فمات اكثر الدواب والناس
من شدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بين الغورى وبين
السلطان سليم وحصن علاء الدولة البلاد كلها والحصارات
والابراج فلما جرى للسلطان سليم ذلك عرض على وزرائه
ذلك وحصل له من الغم ما لا مزيد عليه وكان السلطان سليم
حاد المرارة صعب الخلق فاراد ان يأمر العسكر بالحملة على
تلك النواحى ويحاصر مرعش فأشار وزراؤه عليه ان يرسل
يعلم بذلك الغورى فأمر بكتابة مرسوم الى ملك مصر فانصرف
الغورى يخبره بما فعل علاء الدولة فاجابه الغورى بان علاء
الدولة عاصى امرى فان قدرت عليه فاقتله وخلع على قصاده
وارسلهم ثم كتب الغورى مرسوما وارسله خفية الى علاء الدولة
يشكره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم ولا يمكنه من

شئ ابدا وكان قصد الغوري القاء الفتنة بين الاثنين رجاء ان
يقتل احدهما او كلاهما فيكفي شرهما فانه كان يعرف شدة بأس
كل منهما فقوى قلب علاء الدولة على قتال السلطان سليم
واما السلطان سليم لما قرأ جواب الغوري علم بفراسته انه
خديعة له فتحملت نفسه من الغوري غاية التحمل فكان ذلك
سببا لاثارة الفتنة بينهما حتى وقع ما وقع كما هو المشهور
ثم سافر السلطان سليم الى ملاقاة شاه اسماعيل ووقع
الاتفاق بينهما بان يبطل النار ويقاتل بالسيف والعود فلم
يثبت السلطان سليم غير ساعة وولى عسكره منهزما لان الروم
لا قدرة لهم على ملاقاة الفرس من غير نار فعند ذلك امر اغاة
اليكنجرية ان يرموا بالنار فما كان الا ساعة وانهزم شاه اسمعيل
فان النار لا يطيقها احد فاخذ السلطان سليم ما وجد في
اوطاق العجم وانثنى راجعا منصورا يريد قتال علاء الدولة
واما علاء الدولة فانه جمع جيوشا كثيرة والتقى الجمعان وكان مع السلطان
سليم خان ابن شهسوار وكان شهسوار هو الملك والحاكم على تلك
الديار وهو اخو علاء الدولة فلما قبض على شهسوار بالحيلة
التي عملت عليه شنق على باب زويلة بمصر في زمن قانصوه
على يد الامير شبك الدوادار كبير والقصة مشهورة ثم اخذ
علاء الدولة الحكم بعده وكان لشهسوار ولدا كبرا ولاده
فهرب الى السلطان سليم فما زال عنده حتى وقع هذا الحرب
مع علاء الدولة واصطف الفريقان للقتال وخرج ابن
شهسوار الى الميدان بين الجمعين باذن من السلطان سليم وقال
من عرفني فقد كفى ومن لم يعرفني فانا ابن شهسوار ابن من
ربى في انعام ابي ابن المحبوب لي ولوالدي فليأت تواثب سنجق
من حمام من عدو ولا بد لكل انسان من يحبه ويبغضه فارتج عسكر علاء الدين

واقترق منه بعضه فمن كان يبغض علاء الدولة مالوا الى ابن شهسوار فما تم
غير ساعة حتى عقل علاء الدولة وغالب اولاده وقطعت رؤوسهم
وجاؤا بهم الى السلطان سليم فارسل بهم الى الغوري فلما
راهم حسن قلبه بزوال ملكه لما يعلم من اختلاف عسكره
عليه كما وقع لعلاء الدولة فان الملك ليس هو ملكه الا بالعسكر
فاذا انحرف عليه عسكره ضاع ملكه ثم ان السلطان سليما
طمعت امانه في اخذ مصر ثم توجه الى ادرنة ثم استشار مع
الوزير الاعظم وهو احمد باشا بن هرسك وبعده بيري باشا
فقال ابن هرسك للسلطان سليم نحن تصادمنا مع عسكر مصر
في زمن ابيك وكنا انا باش العسكر وكسرونا اشد كسرة وقبضوا
علي ودخلت مصر اسيرا حتى وقفت بين يدي السلطان قايتباي
فمن علي باطلاقي وعفى عني عفى الله عنه وقد حلفت له ان لا
اسحب في وجه القبلة سيفا ابدا وصدقه على ذلك بيري باشا
ثم بعد ثلاثة ايام امر السلطان سليم بعزل الاثنين ثم سار
قاصدا عسكر مصر فلما وصل الى مدينة زملطي اقام ينتظر
الاخبار فلم يأته احد

ذكر ارسال القاصد من السلطان سليم الى الغوري

فامر السلطان سليم بارسال قاضي الغوري وكان اسم
القاضي زيرك زاده وكان اعرج فما زال حتى وصل الى حلب
فرأى اوطاق الغوري خاليا من العسكر ما فيه الا نحو الفا او
الفين لانهم كانوا كلهم دخلوا الى مدينة حلب واخرجوا النساء
من بيوتهم وسبوا حريمهم واولادهم واذوهم الاذى البليغ
وكان ذلك سببا لقيام اهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة
لشدة ما حل بهم من الضرر منهم فلما بلغ الغوري بانه جاء
قاصد من عند السلطان سليم اذن له فمثل بين يديه وتأدب

غاية

غاية الادب فرحب به وسأله عن السلطان سليم فقال له انا
هذا ولدك وتحت نظرك فقال له الغوري لولا انه مثل ولدي
ما جئت من مصر الى هنا باهل العلم جميعا حتى نصلح بينه وبين
اسماعيل شاه ثم اجزل عطاءه وصرفه ثم امر الغوري بالخروج
الى الحرب فخرج جميع العسكر واودعوا بجميع اموالهم عند اهل
حلب بعد ان كدروا عليهم غاية التكدير واذ وهم غاية الاذى
فلما خرجوا من عندهم دعى عليهم الكبير والصغير والغني والفقير
لما حصل لهم من ضررهم فلما استقر الغوري في اوطاقه

ذكر ارسال الغوري الى السلطان سليم قاصدا

امر بارسال قاصد للسلطان سليم فشاور اكابر دولته فاقتضى
رأيهم ان يرسل رجلا من اهل العلم والدين ليتكلم بينهما بالمعروف
رجاء لحقن دماء المسلمين فلم يفعل وامر باحضار الامير مغلباي
دوادار وكان رجلا فاضلا قادرا على رد الاجوبة واقامة الحجة
فقال له الغوري جهز نفسك واخرج اكشف لنا خبر اهل الروم
وما هم عليه واعط هذه المكاتبة الى ملكهم ثم امر عشرة من خيار
العسكر بالتوجه مع مغلباي الى عسكر السلطان سليم وهم
ملبسين بالملابس الفاخرة كل من راهم يتعجب في خلقهم وحسن
خيلهم وهندامهم وهم كالعرائس واصطفوا صفا واحدا فلما
دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم من غير اطالة نظر اليهم
مليا وامتلأ من الغيظ ثم قال للامير مغلباي يا مغلباي استاذك
ما كان عنده رجل من اهل العلم يرسله لنا وانما ارسلك بهؤلاء العشرة
يرعب بهم قلوب عسكري ويخوفهم برفوته اجناده ولكن انا اكيده
بكيدة اعظم من مكيدته ثم امر برمي رقبة مغلباي وجماعته
وعيط من صميم قلبه بجلاد فارتجفت قلوب الحاضرين لذلك
فقام الوزير يونس باشا وقبل الارض بين يديه وقال الرسول

لا يقتل وليس له ذنب فقال لا بد من ذلك فقال الوزير فان
كان ولا بد فابق على كبيرهم مغلباى فأمر بحبسه ورمى رقبة
العشرة قدام اوطاقه واحدا بعد واحد وهو ينظر اليهم وحبس
مغلباى بقلعة رملطو يومين ثم احضره وحلق ذقنه والبسه
طرطورا وركبه على حمار اعرج معقور وقال له قل لاستاذك
يجتهد جهده وها انا حضرت اليه كالبرق الخاطف والرعد
القاصف ولم يقل له مكاتيب الغورى لشدة غيظه لانه لما رأى
مغلباى والعشرة الملبسين بالحديد المانع فهم بالفراسة انه
ما ارسل هؤلاء الا لخوفه من عسكره من شدة باسهم وفرسانهم فلما
رجع مغلباى للغورى على هذه الصفة عسر عليهم ذلك واقامت
نفوسهم على قتال السلطان سليم بعدما كانوا يظنون انهم انما جاؤا
للصلح بين شاه اسماعيل والسلطان سليم ثم امر الغورى بأن
يخرج العسكر من مدينة حلب الى اوطاقه ويتهيؤا للقتال وامر
الامير كرتباى الوالى بان يكشف خبر السلطان سليم وعسكره
ويرجع على الفور ليمشى عليه ويبادر للحرب فلما وصل كرتباى الى
قيصرية وجد اهلها قد قفلوا ابوابها وتأهبوا للقتال اهل مصر
لما بلغهم ما فعلوه فى حلب واهلها من اخراجهم من اماكنهم
ونهب اموالهم وغصب نسائهم وبناتهم ثم وجدوا يونس
باشا نائب عنتاب عزل حرمه وماله وهو معول على الرحيل الى
السلطان سليم وقد قلب على ابناء جنسه وما له مع الروم فرجع
كرتباى الوالى واخبره بأن قيصرية وعنتاب عصوا علينا واردوا
قتالنا وما لنا مع السلطان سليم وجاءنا الخبر بأن طلائع عسكره
قد اقبلت فلما تحققنا ذلك عطفنا راجعين فارتج عسكر مصر
لذلك ووقع فيهم الخلل فعند ذلك انتبه الغورى من ساعته
وجمع الامراء والاعيان وتحالفوا على ان لا احد منهم يخون صاحبه

ويكونون على قلب رجل واحد ويقاتلون عدوهم بعد ان كان
غالب العسكر مايظن الا الصلح بين السلطان سليم وبين
شاه اسماعيل واما يونس نائب عنتاب فانه ندم على
فعله مع كرتباى الوالى وقال فى نفسه ربما تكون النصرة لهم
فلا أمن على نفسى ولكن اجعل لى معهم وجها وركب من ساعته
الى ان ممثل بين يدى الغورى وزعم ان السلطان سليما قبض
عليه وانه هرب منه وجاء الى مولانا السلطان مساعدا له
على عدوه فلم تنطل حيلته على السلطان ثم امر بتوسيطه فى الوقت
والساعة فوسط والامراء والاعيان كلهم مجتمعون فقام من
بينهم الامير سيباى نائب الشام وقبض على خيربك نائب حلب
وجره من طوقه بين يدى السلطان الغورى وقال يا مولانا
السلطان اذا اردت ان الله ينصرك على عدوك فاقتل هذا الخائن
وكان خيربك فى يده كالشاة بين يدى السبع وهو يجره فقام الامير
جانبردى الغزالى وقال يا مولانا السلطان لاتفتن العسكر
وتبدأ فى قتال بعضهم بعضا وتذهب اخباركم الى عدوكم ويزداد
طمعه فيكم وتضعف شوكتكم والرأى لكم وتأخر فى مكانه وهذه
مكيدة من الغزالى والا كان خيربك قد هلك ولكن اذا اراد الله
تعالى بأمر بلغه ولهى ماله قاتل فأمرهم السلطان بان يتحالفوا
ثانيا وان لايخون منهم احد والخائن يخونه الله تعالى وعليه لعنة
الله ثم امر السلطان ان ينادى فى حلب بالرحيل منها بالعسكر
لقتال السلطان سليم وان ينأهب كل احد ويستفيق لنفسه
وكان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من رجب سنة اثنين وعشرين
وتسعمائة وكان له مواكب حتى رجت الارض وليس الخبر كالعيان
وكان الجلبان ثلاثة عشر الف مملوك كلهم مشتروات الغورى
ولا واحد منهم الا ويعرف سائر انواع الحرب والفروسية فانه كان

جتهد فى تعليم الجلبان وكان قصده ان ينشئ له عسكرا من مماليكه
شتروائه ويقطع القرانصة وهم مماليك الملوك الذين قبله
وكان يحسب حسابهم خوفا من ان يمكروا به كما فعلوا بمن قبله
وكان آخذا حذره ولكن الحذر لا ينفع من القدر والقاعدة
المشهورة من طلب جله فات كله وكان معه الاربعة الائمة من
المذاهب الاربعة وخليفة سيدى احمد البدوى وخليفة سيدى
ابراهيم الدسوقى وخليفة سيدى احمد الرفاعى وخليفة سيدى
عبد القادر الجيلانى وكان معه المؤذنون الدواخل والوعاظ
وكان له نظام عظيم فانخرم ذلك النظام وانتكست تلك
الاعلام ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ذكر التقاء الجمعين

ولما التقى الجمعان فى مرج دابق وكان فى اول الجيش امير كبير سودون
العجمى وادكاس امير سلاح واخشباى امير مجلس وكان اميرا خورا
سيدى محمد بن السلطان الغورى اقام فى حلب بأمر والده وكذلك
دواداره صاحبنا الاشرفى ومن كان فى مقدمة العسكر سودون
الدوادارى رأس نوبة النواب وانس باى حاجب الحجاب وقانصوه
ابن السلطان جركس وكان من الابطال وتمر الزردكاش
وجانبلاط ابو تربين وتانى بك الخازندار وازبك المكحل وبيبرس
ابن عم السلطان وباتوا تلك الليلة على غير حرب ولكن لم يهنأ
لاحد منهم نوم من مكر بعضهم لبعض

وكان ابتداء الحرب يوم الاحد المبارك

الثالث والعشرين من رجب سنة ٩٢١ فلما انضح النهار ركبوا كالبحر
الزاخر فاذا اصفوف العثمانية قد بانت صفا بعد صف خارجا
عن الوصف والاعلام الملونة من اليسار واليمنة وهم سائرون
كالبحر السيال والمحيط الميال وقد رتبوا الصف من كل طرف فاذا

طير من الطرف الكبير الذى فيه السلطان سليم دفعا كبيرا كالبرق الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحرا وطلع دخانه كالجبال الزرقا فكان اول من بادر العثمانية بالحرب من طائفة الجراكسة اصلان ابن بداق نائب حمص لخذ قطار بيده واطلق عنان جواده وصار يطعن فى الفرسان يمينا وشمالا فلما رأى الامراء فعل اصلان ابن بداق فى حملته اخذتهم الحمية فحمل الامير سيباى نائب الشام ثم حمل امير كبير سودون العجمى ومماليكه خلفه نحو الالف ملبسين ثم حمل الامير جانبلاط ابو نار ثم الامير علان دوادار ثانى ثم حمل قانصوه ابن السلطان چركس ثم حمل كرتباى الوالى وكان فارس المنايا والموت الزوام فلله دره من شجاع كان فريد عصره ثم حمل تمر الزردكاش وبخشباى امير مجلس والامير انس باى حاجب الحجاب والامير قانصوه كرت والامير تانى بك الخازندار والامير تانى بك المحمدى والامير بيبرس ابن عم السلطان الغورى والامير قانصوه ابو سنه والامير الفاجر والامير خير بك المعمار والامير جانبردى نائب بيروت والامير جانبردى الغزالى وخير بك نائب حلب وكلاهما كان رأس المتعصبين على الغورى والامير نمراز نائب طرابلس وحملوا بحملتهم حملة واحدة وصادموا الروم وصالوا فى القتال والروم الاخرون لاقوهم كالاسد الدخال قال الشيخ احمد بن زنبل العلى ولم نر فى التواريخ القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الوقعة ولا اجتمع فيها مثل هذين العسكرين ولا اكثر عددا قال ولم يقاتل فى هذا اليوم من الجراكسة اكثر من الفى فارس وهم الامراء الذين قدمنا ذكرهم واتباعهم واما جلبان الغورى الذين هم مشتروانه فلم يتحركوا من مواضعهم ولم يهزوا رمحا ولا جبذوا سيفا وسبب ذلك ان الله تعالى لما اراد ازالة دولتهم اوقع فى قلوبهم

الخلف لامر يقضيه وحكم يمضيه وعلى ما قيل ان السلطان
الغورى امر بأن اول مرة يخرج للحرب القرانصة لكونهم
اعرف بالحرب من الجلبان وكان قصده ان ينقطع القرانصة
ليكتفى شرهم ويصفى له الوقت فانه كان يحسب حسابهم خوفا
من مكرهم فأمر بتقديمهم للحرب واخر جلبانه فعلموا مكره
لما راوه واقفا هو وجلبانه لم يتحرك منهم احد عن موضعه
فتغيرت نياتهم عليه وقالوا له نحن نقاتل بأنفسنا مع النار
وانت واقف تنظر الينا كالعين الشامتة ما تأمر احدا من جماليكك
يخرج للميدان فكان العسكر كله مختلفا فى بعضه مفسود
النية ليس لهم راى يرجعون اليه ولا تدبير يقفون عليه
بل كل من تكلم كلاما يقول الاخر بضده فمن ذلك الخرونطا
واما الامراء الذين تقدم ذكرهم نحو الالفين هم ومن يلوذ
بهم اعتمدوا على الله تعالى فى حملاتهم واصفوا نياتهم وصدموا
الروم وضربوا الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار
كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل لانهم
كانوا يقاتلون من قلب رجل واحد ونيات متفقة ليس لاحد
منهم فى قلبه غل ولا مكر ولا حسد لاحد وهذا احسن ما يكون
لمن يريد النصر ولقد اجاد القائل اذا اراد الله بقوم خيرا وفق
بينهم واذا اراد الله بقوم شرا فتنهم واوقع الخلف بينهم
ومن اعجب ما يكون من العجب ان هؤلاء القوم الكفرة بين من الالفى
فارس المتقدم ذكرهم من الجراكسة يقاتلون قتال الموت فى نحو
مائة وخمسين الفا من الروم والترك ما بين الوف مشاة ومثلهم
خيالة من عسكر الروم ثم حطموا عليهم حطمة واحدة فبينما
هم كذلك الا والسلطان سليم رمح حصانه من قلب الصف الكبير
حتى وصل الى الصف الوسطانى وفى يده سيف عمر بن الخطاب رضى

الله عنه وصاح على عسكره هكذا تعاركون قدامى مع عدوى
وعبط على الباشات فلما نظر الروم الى ذلك ردوا على الجراكسة كالمحو
اذا سال بعرض الوادى فترجع الجميع واطلقوا المدافع والبندقيات
وحملوا على الجراكسة وعبطوا الله الله فكانت الكسرة على الجراكسة
وطيروا الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر فى الثرى وصار
النهار عليهم مثل القيامة الكبرى وكان يجئ كل مدفع على نحو
خمسين او ستين او مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالجزرة
من الدماء وما زال الروم والسلطان سليم سائرين حتى جاوزا
الى صف الغورى فرجع خيربك والغزالى مع من انهزم من الجراكسة
حتى دخلوا وطاق الغورى وناداوا على صواتهم الفرار الفرار
فان السلطان سليما احاط بكم وقتل الغورى والكسرة علينا
وانثنى طالبا حلب فتبعه الجلبان وتشتت العسكر وظنوا ان
السلطان قتل كما قال لخيربك وانما فعل ذلك بعضا ومكيدة مع
الغورى والسلطان الغورى واقف مكانه وحوله بعض الجلبان
القريبين منه واما البعاد عنه فانهم ظنوا انه قتل فانهزموا مع
خيربك قاصدين حلب فلما علم الغورى بما جرى لعسكره من التشتت
صار ينادى عليهم باعلى صوته يا اغوات الشجاعة صبر ساعة فلم
يلتفت اليه احد منهم وكان امر الله قدرا مقدورا وكل ذلك
بغضا منهم لسلطانهم فانه كان يريد ان يقطع القرانصة شيأ
فشيأ ثم يستقل هو بجلبانه ويصفى له الوقت والسلطنة ولقد
قال اهل المعرفة من طلب جله فات كله ولا تعاند تغلب لو انك
السلطان فتقدم الامير سودون العجمى امير كبير وقال له يا مولانا
السلطان ابن جلبانك ابن خاصيتك هكذا عملت بنا ولا نزلت
قائما فى حظ نفسك حتى اهلكت نفسك واهلكتنا معك ولكن
القيامة تجمع بيننا وبينك وسنقف بين يدى مولانا سبحانه وتعالى

بحكم بيننا بالعدل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم
التفت عن يمينه فوجد الامير سيباى والامير اقباى الطويل والامير
علان والامير اصلان بن بداق ومن يشبه هؤلاء من اقرانهم
الاعيان وهم واقفون متجهزون فان جيشهم انكسر قهرا وعسى
ان تقاتل مائة نفس في مائة وثمانين الف نفس ولكنهم مع قلتهم
اوقفوا هذا الجيش العظيم ولم يقدر احد منهم ان يتقدم ثم عبت
هذه الطائفة القليلة من الضرب والقتل والكثرة تغلب الشجاع
وما زال الغوري حتى بقي وحده وخلفه حامل السنجق امير اللواء
وكان رجلا كبير السن من مماليك اينال الاجرود فمن شدة ما حصل
للغوري فانه انكسر قهرا ووقع على الارض مغشيا عليه

ذكر قطع رأس السلطان الغوري مع السلطان سليم

قال فلما وقع السلطان الغوري على الارض رمى حامل السنجق
الرمح واخذ القماش المطرز وكان يساوي ثلاثة الاف ذهب فقال
الامير علان لاقباى الطويل ما ترى في امر السلطان قال له قل ما
عندك قال ان نحن تركناه ورحنا وخليناه يأتي العدو فيقتلونه
ويأخذون رأسه يطوفون بها جميع بلاد الروم قال فما الرأي قال
الرأي نقطع رأسه ونمضي بها في هذا الجب والجثة بلا راس لا يعرفها
احد قال نعم الرأي فامر الامير علان عبدا من عبيده فقطع رأس
السلطان الغوري ورمى بها في جب هناك ثم ولى الامير علان
الى ناحية حلب واما الامير اقباى الطويل فانه طلب ناحية العجم
واقام بها الى ان مات واما الامراء الذين انهزموا بالقتال مع الروم
فانهم فاض عليهم بحر المنايا وزاد وابتلوا بعساكر ملأت
السهل والواد واجتمع عليهم ذلك الجمع الكثير وخاضت خيولهم
في بطون القتلى فقاتلوا قتال من قطع من الدنيا اياسه فقصدهم
الرماة بالبندق فوقع الامير سيباى والامير سودون العجمي واما الامير

قانصوه

قانصوه بن السلطان چركس فانه لا يزال يضرب بالسيف حتى
خرق عسكر الروم وطلع من ذلك الجانب على حمية فلما خلص
شم الهواء وردت روحه اليه بعد ان كان ايس من الحياة والف
حسنة لرجل خرج من بين الوف ولكن اذا جاء امر الله قضى
بالحق والامر لله فيما قضى فوقع فى نهر هناك ينبت فيه العرفج
فالتفت على قوائم الفرس فغرق وكانت عسكر الروم تنظر
اليه على بعد فلما رأوه فى هذه الحالة طمعوا فيه واحاطوا به
فقبضوه وعروه من الملبس فقطعوه بسيوفهم واما الامراء
فغالبهم تشتت فى البلاد وغالبهم قتل وانهزمت تلك الجموع
فتمكن عسكر السلطان سليم من اوطاق الغورى واخذوا
كل ما فيه وكان شيأ يفوق الوصف من الذهب والفضة والقناطير
المقنطرة ومن البرق والملبوس والتحف التى جمعتها الملوك السالفة
ذهبت كلها ونهبت فى يوم واحد وذلك بالنسبة لما ابقاه
السلطان فى قلعة حلب وما اودعته الامراء والاجناد عند اهل
حلب وهو شئ لا ينحصر قليل جدا ومما نقل ان السلطان الغورى
لما خرج لملاقاة العثمانية اخذ معه مائة قنطار ذهبا دنانير
ومائتى قنطار فضة انصافا وكان قصده ان يجعل ذلك
نفقة للعسكر ونوى انه لا يزال ذاهبا حتى يصل اسلانبول
ويأخذها من يد السلطان سليم وسبب ذلك ان السلطان
سليما ارسل له كتابا على سبيل النصيحة وغالبه تهديدا كالسم
فى الدسم ومن جملة ما فيه انه قال ان لم ترجع عما انت فيه
من الظلم والعناء على المسلمين والا جئتك بعسكر من الروم
واخرب مصرك عليك فكان هذا الكلام من جملة التسبب
المحرك للغورى على خروجه لحرب السلطان سليم فارسل فى
الجواب انا لا احوجك للمجئ الينا ولكن نأتيك للقاء الابطال

وتنظر كيف تفعل الرجال وصدق فى قوله لانه افحم قلوب عسكره
واهلك غالب الامراء من القرانصة فكرهته العساكر كلها
وماخرجوا معه الا وكل منهم يتمنى ان لا يرجع الى مصر وكان
هذا من سوء تدبيره وكل ذلك حتى يجرى القضاء والقدر
قال الراوى وبات السلطان سليم فى مرج دابق ثم اصبح وامر
ان تعد القتلى من الفريقين فوجدوا الذى قتل من الجراكسة
الف نفس واكثرهم من المدافع والبندقيات والذى قتل من عسكر
الروم اربعة الاف ثم وجد فى القتلى رجل عظيم من الجراكسة
وعليه من الملابس الفاخرة ما يناسب الملوك وعليه من الهيبة
والوقار ما لا يوصف ووجهه يتلألأ نورا وقد جاء مضروبا
فان اخذ فحذه فجئ ببعض من يعرف الجراكسة فوجده سودون
العجمى اميرا كبيرا فامر به السلطان سليم فغسل وصلى عليه وامر
بدفنه فكان ترابه فى زاوية هناك تسمى زاوية الشيخ ابى النور
القارى واما ما كان من امر الجراكسة فانه لما وقعت عليهم
الكسرة نهب بعضهم بعضا وصار كل انسان منهم يأخذ ما قدر
عليه وكل من كان له عدو وقدر عليه قتله ولكل شئ آفة من
جنسه وانظر الى قوله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا الاية *
وقوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية الاية وقوله تعالى
واذا اراد الله بقوم سوء فلا مرد له ثم ذهب غالب العسكر
قاصدين الى حلب فمنعهم اهل حلب لشدة ما قاسوا منهم حين
مجيئهم مع الغورى فتشتت شملهم وذهبت حميتهم وانكسرت
شوكتهم بعد تلك القوة والمنعة العظيمة والباس الشديد
وكان سبب سعادة اهل حلب من هذه الوقعة فانهم كانوا
اودع عندهم الجراكسة جميع اموالهم وخرجوا على جرائد الخيل
فطمعت فيهم اهل حلب وصدوهم عن الدخول لاجل ذلك واما

خيربك فانه دخل حلب واخذ سيدى محمد بن الغورى وكان
ابقاه ابوه على خزانته واموالة بقلعة حلب فاخبره بأن شهسوار
نازل على جيلان بعشرين الف فارس وهو قاصد اخذك واخذ
حلب فقال سيدى محمد فما الرأى يا امير خيربك قال الراى
ان تنادى فى العسكر بالرحيل الى مصر ويجتمع اليك ماشئت
من العسكر وتكون ملك مصر موضع ابيك وانا مساعدك فى
ذلك فصدقه فى ذلك ونادى فى حلب بالرحيل الى مصر ومن
له رغبة فى المسير الى مصر فليتبعنا فخرجت الناس على وجوههم
وتركوا اثقالهم واموالهم واختاروا سلامة الروح وكانت
مكيدة وخرجوا من حلب كالهاربين وفعل ذلك خيربك حتى
يأخذ حلب للسلطان سليم من غير حرب وكان الامر كذلك فانه
ارسل الى السلطان يخبره بما فعل وانك تسير فى هذا الوقت
الى حلب فانها خالية من العسكر المصرى واما عسكر حلب فمن
اطاعنا ابقيناه فجاء السلطان سليم بموكبه ودخل حلب من
غير حرب واطاعته الرعايا والعساكر فملكها واخذ الاموال
التى وجدها ونهب الغالب وتلاشى امر ابن الغورى وما دخل
مصر الا فى سوء الاحوال واذا اراد الله بأمر بلغه قال الراوى
فلما خرج ابن الغورى من حلب قصد دمشق الشام فخرجت عليه
العربان فنهبت اثقاله واثقال من معه ومن قدر واعليه ولولا
الامير ابرك رأس الجبلان والامير قنبردى الغزالى والا كانوا
نهبوا جميع العسكر فان العسكر ماتت قلوبهم والقى الله تعالى
فى قلوبهم الرعب فما دخلوا دمشق الا فى سوء الاحوال فضاقت
عليهم دمشق وغليت الاسعار فأقاموا بها ثمانية عشر يوما وارادوا
الامير قنبردى الغزالى ان يتسلطن فقال الامير ابرك اولى ما تكون
السلطنة ان تكون لابن السلطان فأجابه الجبلان جملة واحدة

وبعض من القرانصة نعم فلما سمع ذلك الامير قنبردى الغزالى
أيس من السلطنة فشرع فى الملاحاة عليهم وفى تعكيس امرهم
وكلما دبروا امرا تحصل منه منفعة يسخطهم فيه فقام الامير
علان وقال تحت السلطنة بمصر امرام بالشام قالوا بمصر قال
فاذهبوا الى مصر واجتمعوا بمن بها من الامراء واتفقوا على
انسان تختارونه وسلطنوه فان السلطنة لا تصلح لاحد
الا لاشجعنا واعقلنا وخصوصا نحن فى اضيق الاحوال وعدونا
فى طلبنا كيف نسلطن علينا ولدا صغيرا وان كان هو ابن السلطان
ليس فيه كفاءة وقدرة على السلطنة على هذا الوجه وهذا
الحال فاستصوبوا رأيه وما قصده الا ان تكون السلطنة
له فانه كان من الفرسان المخبورة المشهورة وكل انسان مايريد
الحظ الا وفق لنفسه فاقتضى رأيهم بالتوجه لمصر وابن
الغورى معهم كاحاد الناس لايلتفتون اليه واما القرانصة
الرؤس فكل منهم يتمنى ان يكون هو السلطان ولا يكون الا
مايريد مولانا سبحانه وتعالى ثم خرج العسكر من الشام قاصدين
مصر فقالوا للغزالى من يحفظ الشام قال الامير ناصر الدين
ابن الحنش فارسل خلفه وخلع عليه خلعة تليق بمقامه فانه
كان من اعيان شيوخ العربان بتلك الديار وقال له البلاد
بلادك تسلم حفظها حتى ننظر الامر كيف يكون ثم ذهب الامير
قنبردى الغزالى مع العسكر الى مصر وهو كامن لهم الغدر لكونهم
لم يسلطنوه واضمر على معاكستهم ومال بقلبه الى رأى خير بك
فى تحريض السلطان سليم على اخذ مصر فانه كان قصده
الرجوع من حلب الى شاه اسماعيل وما قصده اخذ مصر ولكن
اطمعه فى اخذ مصر خير بك والغزالى فما زال الامراء والعسكر
سائرين الى ان دخلوا مصر ليلا وهم فى اسوء الاحوال فنزل قنبردى

الغزالى فى بيته وابن الغورى فى بيت ابيه الذى بناه له فى البندقانيين
وهو الذى هدمه الحمزاوى وجعله خانا للتجار وبقية البيت
باقية الى الآن وهى القاعة العظيمة وما حولها وبابها من ناحية
سر الغورية فسبحان من يغير ولا يتغير وكان الامير انس باى حاجب
الحجاب فى رأس حدرة البقر عن يمينك وانت متوجه الى
الصليبة وهو يعرف الآن ببيت حمزة الذى مات فى اليمن
وتمر الزردكاش فى البيت الذى فى ازائه وبيت الامير قانى
بك النجمى فى حدرة الصليبة عن يسارك وانت قاصد الكبش
وبيت الامير ازبك المكحل فى رأس الدابغ عن يسارك الذى كان
فيه المرحوم عثمان بيك قائم مقام وبيت قانصوه الغاجر اسفل
منه من ناحية باب زويله وبيت بخشباى تجاهه وبيت ابرك
رأس الجلبان فى رأس الصليبة من ناحية الكبش وبيت الامير
طومانباى دوبدار كبير على بركة الفيل وبيت الامير علان على
بركة الناصرية بجوار مدرسة امير اخور وبيت قانصوه كرت
بالقرب من قناطر السباع وانت قاصد مصر القديمة بجوار
مدرسة لاجين وبيت ابن السلطان جركس بقرب سيدى
عماد الدين وبيت تغطباى نائب القلعة بقرب حمام بشتاك
التى فى رأس سويقة العزة من داخل الدرب وهو الذى كان
ساكن فيه قايداغا ناظر الدشيشه وبيت اركماس امير مجلس
فى الازبكية فى بيت ازبك وتانى بك الخازندار فى بيت الامير
ماماى الذى هو الآن بيت قاضى العسكر وسودون الدودار فى
بيت جانبلاط بالقرب من الخرنفش مقابل مدرسة الباسطية
وبيت قانصوه ابو سنه فى رأس سويقة العزة من ظاهر الدرب
وبيت خوش كلدى فى التبانة بجوار سويقة البقلى وقبقاى الطويل
فى بيت ترابيه وبيت الامير قانصوه رجله فى الرميلة وبيت

جانبلاط ابو ترسين في سويقة صفية وبيت كرتماى الوالى
في رأس سويقة العزة وانت قاصد باب زويله وكانت مصر
بهذه الامراء كالعروس الجلية وكل امير من هؤلاء كالملك المنفرد بنفسه
وكل من في حارته عايش في رزقه وفي حمايته فسبحان من لا يحول
ولا يزول ولا تراه العيون وبيت قانصوه اصقله بباب الخلق
بالحدرة وانت قاصد سويقة صفية وهو مشهور الى الآن
وكان يأمر السياس بان يصقلوا جلد الحصان حتى يصير يلمع
كالمصقول من الثياب فلهذا سمى اصقله وكان بيت الامير سودون
العجمي في رأس سويقة التباعين على يسار القاصد للسويقة المذكورة
فرحم الله تعالى تلك الارواح

ذكر اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر

ونرجع الى اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر وحكاية ما وقع لهم
وكيف كسروا قهرا باختلافهم في بعضهم وملاحاتهم على سلطانهم
فانهم تسببوا في هلاك سلطانهم وهلاك انفسهم وكل ذلك
ثمرة العناد كما قال القائل ولا تعاند فتغلب ولو انك سلطان
ثم اجتمع الامراء والاعيان في ثاني يوم بقلعة الجبل فاقتضى رأيهم
جميعا سلطنة طومانباى وبايعوه على السلطنة في يوم الاحد
خامس عشر شهر رمضان سنة تسعمائة اثنين وعشرين وكانت
سلطنة قانصوه الغوري في سنة ست وتسعمائة وكان رحمه
الله غليظ الجثة كبير البطن متوسط الطول كبير اللحية والوجه
ورزق من الاولاد الذكور ثلاثة ولم يعش له منهم سوى سيدي
محمد وقد اخبر ولده هذا عن والده الغوري انه عاش من العمر ستا
وسبعين سنة وقيل ستا وثمانين سنة ولما بايعوا طومانباى
على السلطنة اراد ان يقبض على سيدي محمد بن الغوري ويأخذ
ما معه من المال فقام الامير ايرك رأس الجلبان وقام معه من بقي

من الجلبان وقال لا سبيل الى اذى ابن استاذنا بوجه من الوجوه
حتى تذهب ارواحنا يهلك استاذنا بينكم ويغلب قهرا وتريدون
ان تهلكوا ولده الأخر فلا كان ذلك ابدا الا ان هلكنا جميعا
فقالت القرانصة وكان المتكلم منهم الامير علان والامير كتباى
الوالى فانهم كانوا عرضوا طوما نباى لما يعلمون من دينه وصلاحه
وشجاعته وفروسيته وليس الخبر كالعيان للجلبان
مهما حصل لابن استاذنا فى عرضنا وفى ذمتنا وانكم تعلمون
ان طوما نباى رجل صوفى فقير من الدنيا وليس معه ما يقوم
بنظام السلطنة وقصدنا ان نأخذ من ابن استاذكم قدر ستين
الفا يدفعها لطوما نباى يستعين بها على لقاء العدو والقادمين
علينا واما ابن استاذكم فانه ولد صغير ليس فيه كفاية لذلك
فاستحسن الجلبان هذا الكلام وخلوا ما كانوا عزموا عليه من
القيام على طوما نباى هذا ما كان من امر الجراكسة واما السلطان
سليم فانه اقام بحلب نحو العشرين يوما وكان مع الغورى خلفا
المشايخ مثل خليفة سيدى احمد البدوى وسيدى عبد
القادر الجيلانى وسيدى ابراهيم الدسوقى وامثالهم فلما
وقعت الكسرة على الغورى بقيت المشايخ المذكورون بحلب
فلما سمعوا بان السلطان سليما قادم الى حلب خافوا من سطوته
فأخذوا فى الذهاب الى نحو الشام فلما راهم على بعد مع الرايات
والاعلام قال ما هؤلاء قالوا له هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا
جاؤا مع الغورى فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب الى مصر
فامر باحضارهم فلما مثلوا بين يديه امر برمى رقابهم واحدا
بعد واحد ولم يرحم منهم كبيرا كبيرة ولا صغيرا صغيرة فقتلهم
عن آخرهم فرحمهم الله اجمعين وكانوا نيفا وثمانين على الف رجل قدر
الله عليهم ذلك ثم امر بالتوجه الى الشام وكان المشير له بذلك

خيربك ولما قدم على الشام امر باحضار على نائب القلعة فشنقه
لاجل عدم تقدمه على استقباله وشنق غالب جماعته وكان
السلطان سليم له اقدام على قتل النفس لا يفكر فى قتل احد وكان
الامير خيربك والامير ناصر الدين بن الحنش شيخ بلاد الدوادار هم
المساعدون للسلطان سليم على مراده ليصير لهم عنده يد وتصير
لهم مزية على سائر اهل البلاد ومن كان لهم عنده غرض يبقون
عليه قال الراوى ثم قوى عزم السلطان سليم على المجئ الى ارض
مصر وما حرضه الى مصر الا خيربك فانه قصد الرجوع الى
بلاده بعد اخذ حلب والشام كما فعل قبله السلطان تيمورلنك
خان فانه كان اخذ حلب وبر الشام بجملته واخرب الشام
وحلب مرة واحدة وافسد العباد والبلاد وهتك حرمان الله
فاخذه الله اخذة رابية وكان قصده اخذ مصر من يد
سلطانها فراج ابن قرقوف تخشى ان يتحول فعمل السكة والخطبة
فى مصر والحرمين باسمه فعاد على عقبه وكذلك السلطان
سليم لما اخذ بر حلب والشام قصد الرجوع الى بلاده فاغواه
خيربك وقنبردى الغزالى وناصر الدين بن الحنش على التوجه
الى مصر وضمن له خيربك اخذ مصر وذلك مكر منه فانه علم
انه ان رجع السلطان سليم الى ارض الروم لم تبق الجراكسة على
خيربك ولو ذهب الى تخويف الارض فما ساعده الا انه التزم
للسلطان سليم باخذ مصر ان شاء السلطان فقال له السلطان
سليم واتى باخذ ملك مصر وجميع العسكر اجتمعوا بها وقد
اخذوا اهبتهم وسلطنوا عليهم طومانباى وهو مشهور
عندهم بالشجاعة والفروسية ولا بد لهم من امر يريد وبينه
ونخشى التجوين فى بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا
فقال خيربك ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة

انقطعوا

انقطعوا وانقطعت قلوبهم لاسيما والخلف واقع بينهم
فانهم جميعهم مختلفون وكل من الامراء الاعيان قصده هلاك
الآخر فيما كان كذلك لا تخش من شيء وانت منصور بنصر
الله لك وقرأ قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم فطابت
نفس السلطان سليم على التوجه الى مصر واخذها ولو فنى
نصف عسكره

ذكر كتابة مرسوم الى السلطان طومانباى

قال ثم امر بكتابة مرسوم الى السلطان طومانباى ملخصه انى
اريد ان تكون الخطبة والسكة باسمى وانت نائب عنى وابقيك
على ما انت عليه فلما وصل المرسوم الى طومانباى قرأه وفهم
معناه وطابت نفسه على ذلك لكونه فيه حقن دماء المسلمين
فقدر الله تعالى ان الامير علان طالع الديوان واذا قد لاحت
منه التفاتة فرأى ولاقية السلطان سليم واقفين تحت الديوان
والناس ينظرون اليهم وقد اشيع الخبر بان السلطان سليما ارسل
يطلب ان تكون السكة والخطبة باسمه فلما رآهم الامير علان
لم يتمالك من نفسه الا ان جذب سيفه وضرب اعناق الهولاقية
بيده وكانوا ثلاثة انفار وطلع الى السلطان طومانباى وهو
مملوء من الغيظ وقال له اصحيح ما قيل قال نعم قال فما الذى حوجك
عليه قال اوافقه على ما اراد واكون سببا فى حقن دماء المسلمين
وبقاء كل واحد فى وطنه فانى علمت من كلامه انى اذا لم اجبه يحصل
عظيم وعلى كل فهو قادم علينا ولا محالة وعلمت ان العسكر كلهم مختلفون
وليس فيهم احد مع احد وما اظن الا ان الله تعالى اراد زوال
ملك الجركس من هذه الديار فما رأيك انت قال رأيى أن
نقاتل عن بلادنا وحريمنا وارزاقنا ونقتل عن آخرنا قال
ولكم صبر على القتال قال هذا اسهل ما يكون فانى قاتلتهم فى مرج

دابق وعرفت حالهم فانه ليس عندهم معرفة بالفروسية ولا
ركوب الخيل وانما غاية ما عندهم الرماة بالبندق والمشاة فنحن
اذا صادمناهم ندكس عليهم دكسة واحدة ندعكهم تحت رجل
الخيل ولعل الله تعالى يمكننا منهم ومن سلطانهم ناخذه اسيرا
ونجعله مثلا ليوم القيامة فلما راى طومانباى عزم الامير علان
على الحرب وانتشر الامر فمنهم من اجاب الى ذلك واختار الحرب
والطعن والضرب ومنهم من اختار الصلح فقام عليهم الامير
علان والامير كرتباى الوالى وشنعوا عليهم بالكلام وذموهم
فما ساعدهم الا انهم اتفقوا على الحرب والدفع عن الحريم والاولاد
واما السلطان سليم فلما رجع له الخبر بان اولاقيته قتلوا بمصر
ارسل خلف خيربك فاحضر امره بالجلوس فجلس وكان السلطان
يحب خيربك لانه لا يأتيه الا على مراده فان السلطان سليما كانت
همته عالية ويحب ان يكون رأس الملوك وهو من كان خادما للحرمين
الشريفين فقال السلطان سليم لخيربك ما الراى عندك قال
نركب الى مصر نأخذها ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من ارض
مصر جملة واحدة وانا ضامن لك هذا الامر بعناية الله تعالى
فالتفت السلطان ليونس باشا وقال له ما تقول فقال اقول ان
السلطان يأخذ من غزة الى الشام ويترك لهم مصر فاننا ان مشينا
عليهم ونجونا فى بلادهم ما نأمن على انفسنا ان حصل لنا كسرة
لا سيما وعندهم من العربان ما لا يحصى عددا والعربة تركن اليهم
اكثر منا لانهم معتادون عليهم ومنهم من هو مصاهرهم وننذ
حيث لا ينفعنا الندم فتألم السلطان لهذا الكلام من يونس باشا
وحقده فى قلبه ولكنه اسرها له فى نفسه حتى قتله وسيأتى
ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى

ذكر خروج السلطان سليم الى مصر

قال ثم ان السلطان سليما امر بالرحيل بعد ثلاثة ايام الى ارض
مصر واحاطوا منباى فانه لما رأى الامراء من الجراكسة معولين
على الحرب جمعهم وضرب المشورة على من يكون باشا على العسكر
فاتفق رأيهم على ان يكون جانبردى الغزالى وكان ذلك اول
عكسهم لكونه ملاحيا عليهم فى الباطن وكان جملة العسكر الذين
خرجوا معه فى هذه التجريدة عشرة الاف عسكريا وعشرة متقدمين
من الالوف وثلاثة من الامراء الاربعينات وثلاثين من الامراء العشرات
ومن الامراء المتقدمين من الالوف العشرة المذكورين جانبردى الغزالى
نائب سكندرية وقانصوه ابوسته وقانصوه كرت وتقطباى
نائب القلعة ومن الامراء الاربعينات برسباى الشهبى وقرقماس
والامير مسد وجانبردى والامير قايتباى نائب الكرك ومن
العشرات الامير خوش كلدى وقانصوه استدار صحبة والامير
جانم دوادار وسيدى محمد بن الغورى واخوه جانبك وقرقاس
الشريفى ولم يسافر فى هذه السنة الحج لان السلطان كان مشغولا
بالحرب ثم خرج العسكر فى اول شوال سنه اثنين وعشرين فلما وصلوا
خان يونس واذا بعسكر السلطان سليم قد اشرف فوقف كل
من العسكرين وارسل كل منهما فارسا يكشف الخبر فلما اجتمع الفارسان
سأل بعضهما بعضا فكل منهما اجاب عن قومه ثم افترقا ورجعا
واخبرا الامر فلما تحقق كل من الفريقين الخبر تهيؤا للقتال ورتبوا
ترتيب الحرب ودكست الجراكسة بالحيل الحربيه دكسة تهد الجبال
فلاقتهم اليكجرية برشق بندق خلت كراقد اكثر من الواقف فدكس
الغزالى وجاشت الحمية والغش فى القتل فتكاثروا عليه وجذبوه
بالكلاليب واخذوه اسيرا فتعصب له الذعر من الغلمان وخلصوه
من قلب العدو بعد ان قتلوا من اليكجرية مقتلة عظيمة وخلصوه
وكانت الكسرة على الجراكسة واما هذا العسكر من الروم فانه كان

فرهاد باشا تقدم على عسكر السلطان بقدر بريد وكان المساعد
له شيخ العرب المسمى بابن البريق على البحراكسة ولاضرهم
فانه يأخذ الرجل على حين غفلة لا يعرف اين جاءه فقاتل الله
اول من اصطنعها وقاتل من يرمي بها على من يشهد الله بالوحدانية
ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة ونرجع الى سياقة
الحديث فاما السلطان سليم فلم يزال سائرا على اكراحة حتى
دخل قطية فلم يجد بها احدا من العسكر مطلقا فاقام بها ثلاثة
ايام فورد عليه احمد بن بقر شيخ بني وائل ومعه اولاده عبد
الدائم وبيبرس والجذامي وخاطر وكان خاطر اصغرهم فخلع عليه
وعلى اولاده السلطان سليم خلعا وكان احمد بن بقر صاحب طبل
خانز في مصر واقره على ما هو عليه من بلاده وارزاقه وكذلك
مشايخ العربان ثم ان السلطان سليما امر باحضار خير بك ووزراته
وقال ما تقولون في حيلة يكون بها تفريق شمل البحراكسة قالوا وما
هي قال ائتوني بغلمان الكاتب وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة
اقلام ويحاكي جميع الخطوط فحضر فقال له السلطان اريد منك
ان تكتب كتبا تحاكي فيها خطوطا مختلفة عن لسان امراء مصر وابن
الغوري بأنهم معي في الباطن ويحرضوني على المجيء الى مصر ويكونون
معي ويساعدوني على طومانباي وعلان وكرتباي الوالي فكتب
الكاتب على لسان الامراء المذكورين وربط الكتب المذكورة واعطاها
لرجل من جماعة خير بك وامره بالذهاب الى اوطاق طومانباي
وان يرميها بالقرب من مجلس السلطان ويقف لينظر ما يقع
بينهم من الخلف ثم يرجع يخبر السلطان سليما ففعل ذلك فرأى
الكاتب بعض مماليك طومانباي فاخذهم واوصلهم الى استاذه
فاخذها وقرأها وجمع الامراء واخبرهم بذلك فانكروا كلهم
ذلك وحلفوا الايمان المغلظة ان هذا لم يصدر منهم فحينئذ طومانباي

في امره واقتتل العسكر وكادوا ان يقتل بعضهم بعضا فقال
لهم طومانباى ربما تكون هذه مكيدة من الاعادى كادونا
بها ليفتنونا ولكن الله تعالى يقابل كلا منا بما يستحق ولكن كونوا
على اهبتكم للقاء عدوكم فلما كان يوم الثلاثا آخر شهر ذى الحجة
الحرام جاءت الاخبار بان السلطان سليما دخل الخانقاه ونادى
السلطان طومانباى فى عسكره كل من جاء برأس دمى له ما يريد
من كل شئ فصارت فرصة الجراكسة تشن الغارة على عسكر
السلطان سليم وكل من استطرفوا به أخذوا راسه وجاؤا بها
الى طومانباى فصار يجزل عطاياهم فساء ذلك قنبردى الغزالى
فلما دخل الليل دخل خيمته وكتب كتابا وختمه وذكر فيه جميع ما فعله
طومانباى وانه اخرج المدافع الكبار التى اودعوها على الجبل
هناك وجعل جميع آلات الحرب فى الريدانيه وقد اشرت عليهم بدفنها
فى الرمل لئلا ينظرها احد من الجواسيس فيخبركم بذلك فقبلوا
منى ذلك بعد جهد عظيم منى فانى خشيت على عسكر السلطان
من ذلك البلاء العظيم والصواب ان السلطان يدور ويأتى
من جانب الجبل فيصيرون اذا رموا لا يفيدهم شيئا وارسل الكتاب
الى خير بك فاوصله الى السلطان سليم فسر بذلك واجزل عطاء
القاصد به ورد الجواب ورجع فجوف الليل الى سيده الغزالى ولكل
شئ آفة من جنسه ففى صبيحة ذلك اليوم امر السلطان سليم بالرحيل
الى ملاقاة طومانباى واما السلطان طومانباى فانه اتفق مع
الامير علان والامير كرتباى الوالى ان يتفرق بعضهم عن بعض
ويحمى بعضهم بعضا وقد علموا ان الغزالى ملاحى عليهم وتحققوا
ذلك وقصدوا قتله ولكنهم خشوا ان قتلوه يفتن العسكر ولكن
توكلوا على الله واخلصوا نياتهم واتفق انهم يقصدون سبق
السلطان سليم فلا يرجعون الا ان يقتلوه او يقتلوا فلما اصبح الصباح

ما طلعت الشمس الا وعسكر السلطان سليم منسكب من ناحية
الجبل كالجراد المنتشر من وراء ظهر عسكر طومانباى فارتجوا
لما راوا ذلك وايقن طومانباى بان عسكره ملاح عليه وان
اشارتهم عليه بدفن المدافع مكيدة منهم له ولم ير له حيلة
يحتال بها فما ساعده الا التسليم لله تعالى فيما حل به فلم يرم شيئا
من تلك المدافع مطلقا الا ان رجلا واحدا وكان اخر من رمى
مدفعا يسمى مجنونة رماه وهرب ففتح فى عسكر السلطان سليم
زقاقا فارتج العسكر الرومى وظنوا ان خيربك والغزالى مكروا
بهم فارسل السلطان سليم خلف خيربك وكان قريبا منه
فقال ما هذا الذى ذكرته فى ردم مدافعهم بالرمل فما هذا
الحال ورأى منه الغضب فقال خيربك مهلا على وارسل
جاسوسا يكشف الامر فغاب ورجع مسرعا وقال رأيت
المدافع كلها مردومة بالرمل وانما هذا رجل اخرس لم يردم مدفعه
بالرمل وابقاه مكشوفا وقال انه ضنا من ذلك فرمى به
وهرب فاطمأن السلطان سليم واما السلطان طومانباى
فلم ينظر الى شئ وانما قصد سنجق السلطان سليم هو والامير علان
وكرتباى الوالى فلازالوا فى مشوارهم وهم يطعنون
بالقنطاريات حتى غاصوا فى جميع عسكر الروم بجملتها فلله در هم
من فرسان لكونهم لقوا هذا الجيش العظيم بنفوسهم وليس الخبر
كالعيان فما زالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا سنجق السلطان
فظن السلطان طومانباى ان الذى تحت السنجق السلطان
سليم فقال له يا سليم انت غرضى سالم وجذبه من على سرجه بيده
اليسرى ورفعه بأعلى رأسه وخبطه على الارض فطبق ضلوعه
بين جنبيه وضربه الامير علان من على يساره فازال رأسه وكان
معه محمود بن رمضان صاحب ضمنه وكذلك فعل الامير كرتباى الوالى

بالامير علي بن شهسوار فلما فعلوا ذلك قوى قلبهم واشتفى
غليلهم وبقيت الروم باهتة بأعينهم كأنهم قطيع غنم بلا راعي
فأعقب الفرحة ترحه وظهر ان الذي قتله طوما نباى انما هو
الوزير الذي يسمى سنان باشا وسبب ذلك ان السلطان سليما
وخيربك وفرهاد باشا ويونس باشا التفوا من طرفي العسكر
ومر عليهم طوما نباى عند رجوعه وصحبته علان وكرتباى
وهم ينظرون اليهم فلم يقدر واحد منهم ان يتعرض له ولا يقربه
مع انهم لو علموا انهم هم ما برحوا حتى اخذوهم ولكن الحي ماله
قاتل فرجع طوما نباى من حملته تلك فلم ير احدا من عسكره فاذا
به منكسر والعدو في اثره فكشف عنه هو والامير ان المذكوران
ورد وا الروم عنهم واذا ببندقية جاءت للامير علان في قصبة
رجله فكسرتها ودخلت في جنب الحصان فقتلته لوقته فوقع من
ساعته الا ان الامير علان حمل نفسه وهم عن الفرس قبل ان
تصل الارض وجاؤا له بجنيب فركبه وقد أيس من الحياة فرد
السلطان طوما نباى ولوى عنان فرسه الى قناطر بني وائل فلما
عاين طوما نباى ذلك أيس من الحرب ولم يبق معه احد الا كرتباى
الوالي فقصد نحو القلعة وطلعوا من خلفها فلازالوا حتى نزلوا
بركة الحبش وتمادوا الى طرا واما الامير علان فانه ما زال سائرا
حتى وصل النيل وعدى لبر المنوفية وذهب الى فلاحه ابن
بغداد الامير حسام الدين فلاقاه احسن ملتقى ورحب به
وارسل فجاء له بالجبر وبقي عنده نحو اليومين فرأى من عينه
الغدر وانه يريد ان يقبض عليه ويرسله الى عدوه فلما تحقق
ذلك تأسف على نفسه وامر بأن يشد له الحصان لاجل ان
يشم الهوا فظنوا انه لم يفطن بهم فركبوه فلما ركب جواده طلب
سيفه وترسه وقطاريسته فلم يقدر احد ان يتعرض له ولا يقربه

بأعضيه من الشجاعة وكذلك الامام علي بن ابي طالب رضي
الله عنه وكرم الله وجهه واما انت فقد لفقت لك عساكر
من اطراف الدنيا من نصارى ومن ارواس ومن غيرهما وجئت
بهذه الحيلة التي تحيلت بها الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقاة
العساكر الاسلامية وهي هذه البندق التي لو رمت بها امرأة
لمنعت بها كذا كذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا
اليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
وهي الجهاد في سبيل الله بالسيف والعود والله يؤيد بنصره
من يشاء ويا ويلك كيف ترمي بالنار على من يشهد لله بالوحدا
ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة وقد جاء بهذه البندقية
رجل مغربي للسلطان الملك الاشرف فانصوه الغوري رحمه
الله تعالى وقتل قاتله واخبره ان هذه البندقية ظهرت من
بلاد البندق وقد استعملها جميع عساكر الروم والعرب وهي
هذه فامره ان يعلمها البعض مما ليكه ففعل وجيء بهم فرموا بحضرته
فساءه ذلك وقال للمغربي نحن لا نترك سنة نبينا صلى الله عليه
وسلم ونتبع سنة النصارى وقد قال مولانا سبحانه وتعالى
ان ينصركم الله فلا غالب لكم فرجع ذلك المغربي وهو يقول
من عاش ينظر هذا الملك كيف يؤخذ بهذه البندقية وقد كان
كذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فقال له السلطا
سليم حيث كانت فيكم الشجاعة والشجعان والفرسان وانتم
على الكتاب والسنة كما زعمت فبأي سبب غلبناكم ومن ارضكم
اخرجناكم واستعبدنا اولادكم واقفينا جموعكم وها انت
جئت اسيرا بين يدينا فقال الامير كرتباي والله ما اخذتم
ارضنا بقوتكم ولا بفروسيتكم وانما ذلك امر قضاه الله
تعالى وقدره في الازل وقد جعل الله لكل شيء بداية ولكل بداية

نهاية

نهاية ولكل دولة مدة معلومة وقسمة مقسومة وقد جرت
عادة الله سبحانه فى خلقه بذلك ابن الائمة المجتهدون ابن الملوك
والسلاطين وانت ايضا لابد ان تموت وينخرم هذا النظام وما
اظنك الا من الذين قال الله تعالى فى حقهم سنستدرجهم من حيث
لا يعلمون واملى لهم ان كيدى متين كيف بك اذا وقفت بين يدى
الله رب العالمين فانفحم منه السلطان ولكنه اظهر الحلم وفؤاده
يتوقد من شدة الغيظ لما اغلظ عليه كرتباى واقام عليه الحجج
المسكتة التى ليس لها جواب ثم قال له واما قولك انك اخذتنى
اسيرا فانه كلام باطل وانما جاء فى رسولك بكتابك مختوما بخاتمك
وها هو فظننت انك تقف على قولك فما رأيت من ذلك شيئا ومما ورد
من هذا المعنى المؤمنون عند اقوالهم وايضا المؤمن ان قال صدق
وان قيل صدق وقال مولانا عز من قائل واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم
ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فازداد السلطان سليم غيظا ولكنه
اظهر الحلم واما خيربك فقد طاطأ رأسه وصار العرق يقطر من وجهه
وبقيت الوزراء واقفين حولهم ينظرون ويسمعون الكلام ولا
يقدرون على شئ ومما ورد فى الحديث الشريف اربع خصال من
كن فيه فهو منافق من اذا ائتمن غدر وان عومل نكر واذا خوصم فجر
واذا قوطع هجر وانت تزعم انك تريد ان تكون خادما للحرمين الشريفين
وانك من اهل العدل والانصاف فما رأينا شيئا من ذلك وانما رأيناك
من اهل الجور والاعتساف يا ويحك كيف تنادى للناس بالامان واذا
جاؤك تخونهم ولكن كفاك ان اسمك سليم خان والله قد رأينا فى
التواريخ ان الملوك الاتى كانت قبلنا من الاتراك والاكراد رحمهم الله
تعالى كان النصارى اذا قالوا لهم قولا وحلفوا لهم عليه اوقالوا للنصارى
قولا وعاهدوهم عليه لا يخلفوهم فيه وهم نصارى فكيف بمن يدعى
انه من الملوك العادلة ويريد ان يكون خادما للحرمين الشريفين وهو

حتى كل ساعده ولكن ماذا يفعل الواحد فى مائتى الف واكثر ثم
رجع فلم يرخلفه احدا من عسكره فمازال طانيا نحو الشيخونية
فلم ير احدا وكان قد تواعد مع عسكره انهم ان حصل لهم هزيمة
يكون موعدهم الجيزة ثم ذهب الى مصر القديمة وعدى الى
بر الجيزة ولقيه مماليكه وبعض العساكر حتى صار نحو الالفين
واما السلطان سليم فانه رجع منصورا الى الجزيرة الوسطانية
وارسل الى خيربك فقال له ما الرأى عندك قال له ما بقى لهم
بعد هذه الصدمة رأس تنقام ابدا قد هرب غالب العسكر
ولم يتبعوا طومانباى فالرأى عندك تنادى لهم بالامان وبعد
ثلاثة ايام كل من وجد عنده جركسى مخبى شنق على باب داره
وكل من كان عنده واحد منهم واخبر السلطان بر وقبض عليه
فعليه الامان هو ومن يلوذ بر فبقيت اولاد مصر كل من كان
عنده جركسى يأتى الى خيربك ويخبره بما عنده فيرسل له جماعة
يقبضون عليه ويأتى بر الى اوطاق السلطان سليم فيضربون عنقه
ويرمونه فى البحر فمن جملة من كان مختبيا الامير كربتاى الوالى فانه
جاء تربندقية فى فخذه فاضربته فما ساعده الا الهروب فاختفى
عند رجل من اصحابه من المباشرين يسمى يحيى بن بكر فلما سمع بالنداء
قال فى نفسه احسن ما يكون وافعل انى اذهب الى اوطاق
السلطان سليم واخبره بأن كربتاى الوالى مخبى عندى وان
يرسل له منديل الامان واقابله بر واكفى شره وتصير لى يد عند
السلطان فجاء الى اوطاق السلطان سليم واجتمع بر مع خيربك
ففرح السلطان بذلك واوعده بأن يعطى له اى منصب يشاء
وارسل معه منديل الامان والمصحف وكتب له كتابا ان جاء
وقابله لا يفعل فيه شيأ وعليه الامان ولا يرى منه الا ما يسره
فرجع ابن بكر الى كربتاى الوالى وبشره بالفرج وانه اجتمع مع السلطان

سليم

سليم واعطاه منديل الامان وها هو وحسن له عباره فى المقابلة
وانه يصير آمنا على نفسه وماله وعياله فدخلت رأسه الجراءة
واجاب الى المقابلة وقام من ساعته وركب معه الى وطاق
السلطان سليم فلما رآه خيربك فرح به فرحا يورث ترحا وقال
له يا امير كربتاى اين عقلك تتبع هذا المجنون المخاطر بنفسه بشير
الى طوما نباى فسوف ترى كيف نأتى به ذليلا حقيرا ولكن حيث
جئت طائعا مختارا فما بقى عليك خوف بعد اليوم ثم دخل خيربك
على السلطان واخبره بمجئ كربتاى الوالى فخرج السلطان الى ظاهر
الخيمة وجلس على كرسى نصب له ونظر الى كربتاى الوالى وقال له
انت كربتاى قال نعم فقال اين فروسيتك واين شجاعتك قال
باقية على حالها قال اذكر ما فعلته مع عسكرى قال اعرف ولا نسيت
منه شيئا قال ما فعلت بعلى بن شهسوار قال قتلته مع جملة من
قتلهم من عسكرك بعد ان عرف من عين السلطان الغدر وانه يقتله
ولا بقى له منه خلاص فترك الادب وتكلم كلام من أيس من الحياة
وجعل عينه فى عين السلطان ورفع يده اليمنى فى وجه السلطان
وقال له اسمع كلامى واصغ اليه حتى تعلم انت وغيرك ان منا
فرسان المنايا والموت الاحمر ولو يلى واحد منا بعسكرك بنفسه وحده
واذا لم تصدق فجرب فامر عسكرك ان يتركوا ضرب البندق
فقط وها انت معك مائتا الف من جميع الاجناس وقف مكانك
وصف عسكرك ويخرج لك منا ثلاثة انفار انا عبد الله والفارس
الكرار السلطان طوما نباى والامير علان وانظر بعينك كيف
تفعل هذه الثلاثة تبقى تعرف روحك ان كنت ملكا او يصلح لك
ان تكون ملكا فان الملك لا يصلح الا لمن يكون من الابطال المخبورة
كما كان عليه السلف الصالح رضى الله عنهم فانظر فى التواريخ
ما كان من الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وخذ لك

مع انه لو علم انهم كذا ما كان يقرب اليهم ولما ركب
على حصانه التفت الى الامير حسام الدين وقال له ستنظرون
امرواحكم بعدنا يا خونة الله يخون الخائن ولوى عنان جواده
فلم يتبعه احد وكلما لاقته سرية عرب يقول لهم انا علاء الدين
فلم يقدر احد ان يقربه فلازال حتى عدى الجيزة وقصد نحو الصعيد
فلازال حتى دخل بلدا فى اقليم البهنسا يقال لها نويرة فنزل عن
فرسه واستقبل القبلة فمات رحمة الله تعالى عليه فصلى
عليه اهل البلد ودفنوه فى زاوية هناك واما السلطان طومانباى
فانه لما رجع من الحرب لم يجد احدا من عسكره الا وقد ولى منهزما
من كثرة البندق والضرب بالزانات فلم يستطع احدان يقف امام
ذلك فطلع من وراء القلعة وقصد ناحية طرا والعدو يتبعه
بعض العسكر يقفون اثره سرية بعد سرية الى ان سار معه سبعة
الاف فارس الاعيان منهم الامير قانصوه كرت وقانصوه رجله
وقانصوه الفاجر وانس باى حاجب الحجاب ونخشباى امير مجلس
وسنباى الاعور والامير قانصوه العادلى كاشف المنوفية
وازبك المكحل وتانى بك النجمى والباقى مماليكهم واتباعهم واما
الامير جانبلاط فانه قد تجون فى قلب العدو وما بقى يقدر على الهرب
فلما أيس من نفسه صار يقاتل الى وراء فلازال كذلك حتى وصل
الى قبة الهواء فبطل جواده فنزل عنه وصار يقاتل راجلا يعنى
ماشيا فلما رأته الروم ترجل طمعوا فيه وقالوا هذا رجل ونحن
رجال فانطبقوا عليه كالجراد فصادفته ضربة زان فوقع الى
الارض ووقعوا عليه بالسيوف حتى صار لا يعلم له رأس من رجل
وكذلك الامير قانصوه رجله فى الرميلة وما بقى من عسكر
الجراكسة منهم من قتل بالبندق ومنهم من هرب ومنهم من تبع
السلطان طومانباى وباتت مصر ليس فيها جركسى الا ان كان

مختفيا

مخفيا فعند ذلك دخل خير بك على السلطان سليم واخبره بما وقع
وانه امر بارسال صوباشي فملك القلعة وليس فيها احد غيره
والرأى لما يراه مولانا السلطان فشكره السلطان على ما فعله
من تمليكه ملك مصر الذى ماتت بحسرته الملوك فقال السلطان
صف لى مصر كأنى انظر اليها فوصفها له من اولها الى اخرها فاختار
النزول على شاطئ النيل فى الجزيرة الوسطانية وانما طلع الى
القلعة ساعة وجلس على المصطبة التى تجاه الديوان ثم نزل على
الفور خيفة على نفسه من الغدر من احد من الامراء وبات
فى الجزيرة ثم انه شرع فى ارسال العسكر الى طومانباى فلم يجدوا
بمصر جركسيا وباتت مصر ليس فيها منهم احد واما طومانباى
فانه سار بمماليكه الى ناحية طرا والعدوية وتبعته العساكر
الجراكسة حتى بقى معه سبعة الاف خيال فاقتضى رأيهم بالرجوع
الى مصر وان يحاربوا عدوهم حتى يفنوا عن آخرهم فرجع طومانباى
ونزل فى الشيخونية وتفرقت العساكر فى الحارات فقتلوا من الروم
نحو العشرة الاف او اكثر فى ليلة واحدة ثم اصبحوا فجاءتهم عساكر
الروم من جهة الكبش ومن جهة حدرة الحنة فاقتتلوا مرات عديدة
وظهرت الجراكسة على الاروام وقتلوا منهم نحو خمسة عشر الفا فى
ثلاثة ايام وفى كل مرة يرجع الروم منهزمين فعند ذلك اقتضى
رأى السلطان سليم ان يركب هو بنفسه ويأتى من جانب الرافعة
ويلقى طومانباى فى الرميلة فاما له واما عليه ونوى ان وقعت
الكسرة عليه يتم سائرا الى بلاد الروم فلما فعل ذلك وجاء الى
الرميلة اطبق الجو من ضرب البندق والضرب بالزانات فلما سمع الجراكسة
ذلك بعد وابعدان كانوا غالبين مستبشرين بالنصر وهم
غالب عسكرهم وقالوا من يقابل هذه النار المهلكة واما طومانباى
فانه لم يهرب وحطم عليهم حطمة الاسد الغضبان وقتل فيهم قتلا

لا يصدق فى قوله والكذب سمة المنافقين فلا حول ولا قوة الا بالله
العلى العظيم فلا يغرنك ما انت فيه وما اصبحت دولتك فيه من
الاقبال فانه لابد لكل اقبال من ادبار ولكل جمع من تفريق ولكل اجل
من انصرام ولكل توفيق من اختلاف ولكل فرح من ترح وقد كنا اقوى
منكم واشد بأسا واعظم مراسا وانظر كيف فعلت بنا هذه الدنيا
الغدارة المكارة وبعد ما حصل لنا ذلك انا بينكم واحد بمفردى
أؤمر عسكرك ان يضربوا على يزك ويسيروا الى مائة بمائة او مائتين
بمائتين او الف بألف وانظر ما اصنع فيهم كل ذلك والسلطان سليم
ساكت يسمع قول كرتباى وجراءته على هذا الكلام واستحضاره
هذه الاجوبة مع انه متحقق الهلاك ولا محالة ثم قال باى سبب تذمنا
فى قولك وتزدرينا وتسبنا والله لاهمنا كثرة جموعكم ولا رميكم
بسندقكم واحجاركم وانما كان السبب لزوالنا خلف حصل بيننا فنظر
السلطان الى خير بك واشار اليه بأن يقرب منه حتى يشاوره فى امر
كرتباى الوالى فلما وقف قدام الكرسى قال له ما تقول فى هذا الرجل
وجوابه وقوة قلبه ان قتل مثل هذا لا يليق وافتخر بمثل هذا فى عسكر
واجعله سخقا فاصفر لون خير بك وقال يا مولاى ان ابقيت عليه
وجعلته وزيرا لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد
جميع عسكرك وما قال ذلك خير بك الا بغضا فيه وفى ابناء جنسه
فقال له السلطان فما الرأى قال اضرب عنقه بلا تأخير وتأخر
خير بك ووقف مكانه ولونه مصفر متغير فعرف الامير كرتباى انه احسن
له قتله فقال الامير كرتباى للسلطان ان هذا قائدك الى جهنم اصنع
ما شئت من لم يمت بالسيف مات بغيره فعند ذلك نظر السلطان
اليه نظرة الغضب وقال له انى اردت ان اعتقك وافرج عنك
واجعلك اميرا من امرائى فرأيتك قليل الادب جرئ اللسان فتحدث
فى مجلسى والذى يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة

فقال

فقال له كرتباى الوالى معاذ الله ان اكون من امرائك ومن اتباعك
وانت بهذه الصفة فنادى السلطان بأعلى صوته وقد احمر وجهه
من شدة الغيظ وقال اين الجلاد فتقدم نحو مائة وخمسين
جلادا فقال اضربوا عنق هذا الملعون الجركسى فقال كرتباى قطع
رأسى وحدى لا يفيدك منه شئ فان وراءى ابطالا وشجعانا وكفى
بالسلطان طومانباى نصره الله فلما سمع السلطان بذلك امر
بالسياف ان يضرب عنقه فقال له والسيف فوق رأسه اذا
قطعت رأسى خذها وهى بدمها بيدك واجعلها فى كمر امرائك باخائن
يخونك الله فضربه السياف فطير رأسه قدامه وذهب الى حاله
واما السلطان طومانباى فانه لما وقعت الكسرة على الجراكسة كان
وعدهم قبل ذلك وقالوا ان جاءت الكسرة علينا يكون ميعادنا بر
الجيزة فلما كان كذلك عدى الى بر الجيزة وتبعه بعض الجراكسة حتى
صار معه الفا خيال لكن فيهم كل فارس يقوم بالف فارس لان
الكثرة غلبت الشجاعة والنار لا يقابلها احد ولولا النار التى مع السلطان
سليم ما غلبهم فى الحرب ولا مرة ولكن اذا اراد الله بأمر بلغه ولله
فى هذه ارادة فذهب السلطان طومانباى الى نحو الصعيد وقصد
هوارة وطلب منهم النصرة وان يرفع عنهم الخراج ثلاث سنوات فأبوا
وقالوا قد بلغنا ان الروم تقاتل بالنار ومن يطيق النار فانثنى راجعا
وتبعه من العربان نحو سبعة الاف فارس محبة فيه فانه كان رحمه
الله تعالى محبوب الصورة لكل احد ولكن اذا تم الامر ترقب زواله اذا
قيل تم فلم يزل قادما حتى وصل الى قرب اطفيح فرأى قلوعا بكثرة
وهى مقلعة فلما عاينها وقف وقال ما اظن الا ان السلطان سليما
جاءنا او ارسل الينا جيشا قال فلما عاينوا بعضهم بعضا دخلت
المراكب البر وطلع منهم من الرماة نحو خمسة الاف رامى بالبندق
والضربزانات ومن المدافع خمسون وكان القيم على ذلك رجلا يسمى

جانم السيفي كاشف الفيوم فانه جاء مع السلطان طومانباى بعد كسرة
الريدانية واجتمعوا عند طرا والعدوية واتفق رأيهم بانه يكبسوا
على السلطان سليم بالجزيرة الوسطانية التى بين بولاق وقصر
ابن لعينى فلما علم ذلك جانم قال فى نفسه احق ما افعل انا اذهب
الى السلطان سليم خان واخبره بذلك واخذ لى منه الامان واكون
من حزبه فان دولتنا قد ولت فخرج ليلا من عسكر السلطان طومانباى
هو وامير آخر يسمى ابو حمزة ومعهم مماليكهم نحو المائتين فلما اصبحوا
علموا ان جانم السيفي قد خرج ليلا فاستقصوا خبره فقال بعض
الاجناد للسلطان طومانباى قد سمعناه وهو يقول ان الذى
يريد السلامة لنفسه يتبع السلطان سليما فان اسمه سليم ومن
تبعه سلم ومن عصاه ندم فتكدر السلطان طومانباى وقال
سيندم حيث لا ينفعه الندم وهل يرتجى من العدو خير ولكن
لا دافع لله فيما قضى فلما اجتمع جانم السيفي بالسلطان سليم واخبره
انه جاءه راغبا فى طاعته وان طومانباى قد عول على كبسه فى
الليلة القابلة أخذوا اهبتهم واستيقظوا لانفسهم فجاءت
الاخبار لطومانباى بأن جانما السيفي دخل فى طاعة السلطان سليم
واخبره بأنك تريد ان تكبس عليه فأخذوا اهبتهم وعبوا النار
من كل جهة فان فعلت شيئا من ذلك هلكت نفسك واهلكت من
معك فأعرض عن ذلك واقتضى رأيه ان ينزل فى الشيخونية وبجاره
كما تقدم ثم انكسر وذهب الى الجزيرة فلما علم السلطان طومانباى
ان هذه المراكب ما جاء بها الا جانم السيفي فانه لما اجتمع بالسلطان
سليم وعرف صدقه واماناته كان السلطان كلما يجلس فى ديوانه
يرسل خلف خيربك وجانم هذا ويأمرهم بالجلوس بحضرته ويستشيرهم
بما فيه الصواب ويظهر لهم انه ان تمكن على ملك مصر يعطى خيربك
باشويته الى ان يموت اقطاعا ويعطى لجانم الفيوم اقطاعا ثم قال

لهم

لهم قصدى ارسل لطوما نباى جيشا لعل ان اظفر به فقالوا له حبا وكرامة قل ما شئت فانا لامرك طائعون ولرأيك سامعون فقال من يكون باشا على العسكر فقال جانم السيفى انا اكفيك ذلك ان شاء الله وارجو ان لا ارجع الا برأس طوما نباى واقبض عليه قبضا باليد واتى لكم به اسيرا فشكره السلطان على ذلك فارسل معه خمسة عشر الف راكب وخمسة الاف رامى بندق وخمسين ضربزانات وخلع عليه خلعة وخرج خرجة اطبقت الجوخين اقلع ورمت الرماة طلقا اظلم الدنيا وايقنت الناس ان طوما نباى لا طاقة له بهذا الجيش وخصوصا بجانم السيفى مقدم عليهم وكان جانم هذا من الابطال المشهورة والشجعان المخبورة فلما عاين عسكر طوما نباى امر بدخول المراكب الى البر وسيبوا طلقا تزلزل الارض منه وارسل الى طوما نباى يقول له فى غد الحرب بيننا وبينك فقال طوما نباى حبا وكرامة

ذكر التقاء طوما نباى مع جانم السيفى

قال فلما اصبح النهار تصافوا للحرب فاما العرب التى كانت تجمعت مع طوما نباى فانهم لما راوا هذه النيران قالوا لبعضهم ومن يطيق هذا الامر المهلك لا يقاتل هؤلاء الا مجنون او فارغ من الحياة ولكن نحن نرتفع عن هؤلاء الى بعد فكل من رأينا الكسرة عليه نهبناه هذا ما كان من امر العرب واما السلطان طوما نباى فانه ثبت للحرب ولم يتاخر من مكانه فكان اول من خرج فى حومة الميدان جانم السيفى ونادى باعلى صوته لا يبرز الا الامير طوما نباى ولعب انداباتى فى الميدان حتى ادهش الناظرين وقوى قلب الروم حين راوا منه ذلك وقالوا اما يقاوم طوما نباى فى الفروسية الا هذا البهلوان وصاروا يشكرون فكلما سمع منهم ذلك يزداد فى لعب الانداب حتى تعجب الحاضرون من الروم ثم بعد ذلك وقف

في حومة الميدان وقال للجراكسة اين فرسانكم اين شجعانكم فخرج
من بينهم فارس كانه الباشق اذا انقض على الصيد وقال له غرتك
نفسك يا جانم وخنت ابناء جنسك فسود الله وجهك يا خائن
فقال له بطل الكلام وابرز للضرب بالحسام فقال اصبر حتى
اريك لعب الاندلب وكان ذلك الفارس هو الامير دولتباى
كاشف الجيزة فلعب في الميدان اندلبا فاق عليه فتعجب الروم ثم
التطم الاثنان فوقع بينهما من الحرب ما حير النظار من اول
النهار الى الظهر فلما آيس جانم من خصمه رمى الرمح وسحب السيف
وضرب دولتباى على خوذته فقطعها وجرحه جرحا غير بالغ
فلما ساح دمه عيطت الروم باجمعها آفرم آفرم فقوى قلب جانم
وضرب خصمه ضربة ازال رمحه فبقي الرمح في يد دولتباى من غير
حربة فالغت الركيز وحذف على جانم فدخل الركيز في جنبه شبرا
بين اضلاعه فوقع عن جواده فنزل دولتباى ليقطع رأسه
فاندلعت عليه الروم بجملتها فلم يتمكن من عدوه فما ساعده الا ان
تركه وانثنى على جواده والتطم الجيشان فلله در الفين تقاتل
في عشرين الفا وتكسرهم حتى وقفوهم في مراكبهم وكان النهار
قد ولى فنزل عسكر الروم الى المراكب وعدوا الى ذلك البر واما
السلطان طومانباى فانه بات في البحر الغربي فلما جن الليل جلس طومانباى ودعى الامير
شربك الاعور وبقية الامراء وضربوا المشورة فاقتضى الرأى ان يقتسموا
الى فرقتين فرقة مع الامير شربك وفرقة مع السلطان طومانباى
وان يذهب الامير شربك الى بعد ويقف السلطان طومانباى
في موضع المعركة فان عدى الاروام وجاؤا لنا اخذناهم من الوسطة
فاتفقوا على ذلك واما العسكر الرومي لما اصبحوا قالوا للجانم ما رأى
عندك قال ندهب للحرب اما بنا واما بهم ولا نرجع عنهم لعلنا
نظفر بهم فلما رأوا جانم مصمما على الحرب قالوا له انت مجروح وليس

لك قدرة على الحرب فقال لهم انا واحد وانتم الوف لاتحتاجون
الى واحد وكان المخاطب له اغاة اليكجرية فلما سمعوا منه ذلك
قالوا صدق فى قوله فعدوا الى البر الغربى وطلعوا الى موضع المعركة
فرآهم الجراكسة فبادروهم بالحرب والتطموا معهم فبينما هم فى
قوة الحرب واذا هم بالامير شربك الاعور قد دهمهم من خلفهم
بعدان اخذ المراكب التى على الساحل بحملتها فما انفك منه غير مركبين
وارسل الجميع مع عشرين جندياً الى الجانب الوطاق السلطانى طومانباى
وانطبقت على الروم الفرقتين من الجراكسة وهم كل فرقة نحو الثمانية
الاف والروم نحو العشرين الفا غير العربان فما مضى غير ساعة حتى
انكسرت الروم وقصدت المراكب فلم تجدها فانقطعت قلوبهم وتبعتهم
الجراكسة فأفنوهم وما نجى منهم سوى جانم وابو حمزة واغاة اليكجرية
المسمى بايا سر اغا فانهم لما انهزموا قصدوا المراكب فلم يجدوها فاطلقوا
عنان خيلهم على شاطئ النيل فتبعهم فانصوه لكن كان بينه وبينهم مسافة
رأى العين فلم يدركهم فنجوا بانفوسهم فقط وجميع ما كان معهم من
الضريزانات والبندقيات والات الحرب وغيرها كلة بجملته غنمته
الجراكسة واما جانم ورفقته فانهم لازالوا راجعين على شاطئ النيل
حتى لحقوا بالمركبين اللذين انفلتا من الامير شربك فما صدقوا ان ينزلوا فيهما
وارتحوا فى التيار فلما رآهم فانصوه العادلى قد طلعوا فى المركبين
أيس منهم ورجع متأسفا لكونه لم يبلغهم وكان السلطان طومانباى
افتقد من قتل من عسكره فوجدهم الفين وتلثمائة غير العربان وكلهم
من البندق فلما رجع جانم وابو حمزة والاغا منهزمين وقتل غالب
عسكرهم وعلم السلطان سليم بذلك كاد ان ينفلق قلبه من شدة ما حصل
له من القهر والغم وارسل خلف خيربك وقال له قد غررتنا وادخلتنا
فى بلاد هولاء ولا احد يسهل عليه ترك بلاده ولو ان طومانباى
اعطانى الخطبة والسكة باسمى لرجعت عنهم من الشام وما كنت دست

هذه الارض برجلي ولاكنت مائلا على دماء رقابهم ولا على مالهم
واولادهم من حين دخلنا انا كنت احسبانهم زمرة قليلة وشرذمة
ذليلة وانهم جمع على رأسه جماعة من بقية سيوفنا وحصل منه ضرر
على عسكرنا نحن من الدوحة المباركة العثمانية لانهم كبيرا لكبره
ولا صغيرا لصغره سيوفنا لامعة على رؤس اعدائنا فمن طلب حربنا
ندم ومن قصدا ماننا سلم وانا الذى هدمت الدولتين فى ركبتين
والسلاطين تفتخر بعبوديتنا والرمال تعد ولا تعد كثرة عسكرنا من
تقرب الينا شبرا تقربنا اليه ذراعا ومن تقرب الينا ذراعا تقربنا
اليه باعا وان للحرب دأبنا والجهاد صنعتنا نحن من الشجرة الطيبة التى
اصلها ثابت وفرعها فى السماء ويوم الحرب نمطر من سماء غضبنا حجارة
ورصاصا من السماء على اعدائنا والذين هم كاصحاب الفيل نرميهم بحجارة من
سجيل فيصيح كل مدفع من مدافعنا صيحة الرعد وفيه البرق والسحاب
الثقيل وان هذا المتغلب الجاهل وفرعون الباطل ما هو اكبر من سلطان
العجم ولا من الغورى فانهم لم يقدروا ان يقفوا امامى يومين
كاملين فكيف يلم العرب والجراكسة ويعارك مع عسكرى ويعمل
عليهم حيل اليهود وعندى عسكر لا يقف عليه سلاطين العالم واذا
عاتبه مثله الى عسكر بفرد حكمى يجيبونه عسكر من دار سلطنتى اولهم
يكون فى مصر وآخرهم يكون فى القسطنطينية ومامراد هذا الكافر
الفاجر هو وغيره والغورى وقايتباى كانوا مماليك لنا اى شئ كان لهم
نسبة بالسلطنة لا تليق للسلطنة الا لنا لان جدنا سلطان بن
سلطان بن سلطان الى سيدنا نوح عليه السلام وشغلنا الجهاد
والقتال للكفار والروافض واهل الطغيان والعدوان فقال له
خير بك يا مولانا السلطان ان طومانباى رجل عاقل وانا اعرفه انه
ليس له رغبة ان يكون ملكا ولا له على السلطنة استحقاق وانما
عبدكم الغورى اوصى جميع امرائه انه اذا اصابه شئ لا يسلطنون عليهم

الاطوما نباى لما يعلم من عقله ودينه وفروسيته وشجاعته فانه
فريد عصره وبعده شريك الاعور والامير علان الذى قدمات وجاء
خبره انه جاءته ضربة فى فخذه كسرته وكر تباى الوالى الذى قطعت
راسه فقال له السلطان سليم انت اغررتنى وطمعتنى فى اخذ هذا
الاقليم فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف والا فمن راسك
واغتاظ السلطان سليم من خيربك غيظا عظيما فخرج من عنده
وهو اعمى اصم لا يعلم كيف يصنع فلقيه يونس باشا الوزير الاعظم
فقال له ما خبرك فاخبره بما قال له السلطان سليم فقال الوزير
والله صدق السلطان فى قوله والله لو سمع قولى لاشرت عليه
بأن ينادى فى عسكره بالرحيل ونرجع الى بلادنا واوطاننا ونعرف
كيف صارت احوال بلادنا من هجوم الكفرة والرفضة فانك لاجل
غرضك وكراهتك لابناء جنسك جوتنا بين هولاء الملاعين
وابعدتنا عن بلادنا فخاف خيربك على نفسه وحسب حساب يونس
باشا انه يكرهه ومهما يتكلم مع السلطان سليم فى حق خيربك يقتله
فانثنى خيربك راجعا الى خيمة السلطان واستأذن فاذن له فى
الدخول فقال له السلطان ما الذى دبرته من الراى قال ليعلم
مولانا السلطان انى ما جئتك الا راغبا فى طاعتك ومحبة لك وآثرتك
على جميع ابناء جنسى وقد اطلعت على بعض الملاحم فرأيت الرموز
تدل على انك ستملك هذا الاقليم وتصير سلطان الحرمين ولكن
يا مولانا السلطان اريد منك فرد شى وهو انك لا تقبل فى حق
كلام احد الا بما يقتضيه رأيك السديد فان اقتضى رأيك ان
تقتلنى فافعل فقد حللتك دمى فتبسم فى وجهه السلطان وقال
له لولا تحققى محبتك ما اطعتك وجئت معك الى هنا ولكن كن بنا
فى تدبير ما فيه الصلاح فقال والله يا مولانا السلطان لا ابقى
ممكنا فى نصرتك ولو بروحى لا فعلته فشكره السلطان على ذلك

وامر له بخلعة عظيمة فلما رجع من عند السلطان وهو لابس الخلعة
ورآه يونس باشا وهو قادم عليه علم ان خيرك دخل على عقل
السلطان ومشى معه على مراده فقام له وبجله ظاهرا مع الكراهة
له باطنا فقال له ما الذى اقتضى رأى الامير قال ما يكون الا خيرا
وارجو من الله تعالى ان يمكننا من طوما نباى ونأتى به اسيرا بين
يدى السلطان فقال له يونس باشا ان شاء الله تعالى بسعد دولة
سلطاننا فلما رجع جانم وابو حمزة واياس اغا الى اوطاق السلطان
سليم نكد السلطان وندم على ارسال جانم ثم انه عمل ديوانا فلما
حضرته الوزراء والامراء قال اين خيرك فجاء ووقف بين يدى
السلطان فقال له ما تقول قال الامر امرك ونحن بين يديك مهما
امرتنا به فعلناه ولو كان فيه هلاك ارواحنا قال السلطان ان
قلبى حسن من الاول ان جانم ليس هو كفؤ الطومانباى ولكن انا اريد
ان ارسل له كتابا بالامان مع قاصد عاقل يرد الجواب فلعل الله تعالى
ان يهديه ويبقيه على بلاده واخبره انى رضيت منه بالاسم فقط
بان اصير سلطان الحرمين وتصير لى مزية على ملوك الارض ويجعل
الخطبة والسكة باسمى واعطى له مصر الى ان يموت فقال خيرك
يفعل مولانا السلطان ما يقتضيه رأيه فى ارسال الاول او لا فى
ولكن انا اعرف انه معاند وجاهل لا يوافق على شئ من ذلك وربما
يقتل القاصد فقال السلطان اذا لم يوافق والا انا القاه بنفسى
والله يؤيد بنصره من يشاء فعند ذلك ارسل قاصدا يسمى مصطفى
وكان عارفا عاقلا طلق اللسان اديبا وارسل معه ايضا خمسمائة
نفس لان الطريق كانت مخيفة من العربان فلما وصل الى اوطاق
السلطان طومانباى وكان بالقرب من ناحية منية ابن خصيب
ترجل عن فرسه ونزل هو وجميع من معه فاستأذن فى الاجتماع
على السلطان فاذن له فلما وصل المكاتيب للسلطان طومانباى فقرأها

واعطاها

واعطاها للامير شربك فانه قد ارسل لكل امير كتابا بخصوصه
يخبرهم بانه لاحاجة له ببلادهم وانه ما يريد الا الاسم فقط واذ
كل من قابله خلع عليه واعطاه مرسوما يا لامان وانتم على
ما انتم عليه وانتم فى امان الله تعالى والله يحون الخائن واوثق
كلامه بايمان واقسام فقال السلطان طومانباى ماتقولون يا امرا
فقال الامير شربك اما رأيي فقتل هؤلاء الطائفة التى ساقها العزة
الالهية الينا لنكتفى من شرهم واما انت ان مالت نفسك الى طاعة
عدوك فاعلم ان ما بينك وبين الهلاك الا ان تصل اليه وتقف بين
يديه فتصير الامانة خيانة والعزة اهانة وتكون كالذى القى بنفسه
الى التهلكة وطلب منها السلامة وندم حيث لا تفيد الندامة واما
انا فلا ادخل تحت طاعة عدوى فلتعلم ان ما بينك وبين الهلاك الا
وصولك وتقف بين يديه فتصير الامانة خيانة والعزة اهانة وتكون
كالذى القى نفسه فى التهلكة فلا ادخل تحت امان العدو فى عمرى
ولا مرة واحدة وذلك لانى اعرف ان ما آخر كل حياة الا الممات وقد
جعل الله تعالى لكل شئ ميقاتا فان دخلت تحت طاعته لا يزيد فى
عمرى لعلمى ان الموت لا مفر منه وان كل حى لا بد له من الموت فاقتضى
رأيهم ان يقبضوا على القاصد الذى جاءهم ومن معه وان يضربوا
رقاب الاولاقية فهربوا الذين جاؤا معه الى السلطان سليم ثم امر
السلطان طومانباى بالمسير الى جهته فلم يزالوا سائرين حتى اشرفوا
على بركة الجيش فرأوا بها اوطاق السلطان سليم وهم من ذلك البر
على بعد فوقفوا ينظرون ويتأملون ويفكرون الرأى كيف يصنعون
وعلموا ان السلطان سليما انما خرج الى بركة الجيش مريدا للحرب ويريد
ان يعدى الى بر الجيزة فبينما هم واقفون واذا بكردوس من الخيل
قام اليهم واذا به الامير زنكل الناشف فقدم على السلطان طومانباى
وقبل يديه واعتذر له بانه كان معذورا بسبب جراحة اصابته

يوم الريدانية واخبره بأن قانبردى الغزالى كان رأس الملاحين
عليهم حين اخرجوا المدافع وامرهم بردمهم تحت الرمل وكان هذا
غاية المعاكسة لهم فقال السلطان طومانباى والله انى عرفت انه
ملاحى علينا من اول مرة لما ارسلته بالجيش فقتل اكثره وانهزم فعلمت
انه بالقصد منه واما السلطان سليم فانه لما جاءه جانم وابو حمزة
منهزمين واخبراه بما جرى لهم وان السلطان طومانباى قادم بجموعه
التى جمعها فارتاب السلطان سليم فعند ذلك امر يونس باشا بأن
يرسل ويأتى بالامراء المسوكين عندهم فانهم كانوا قد نادوا لهم بالامان
وكان ذلك مكيدة من خيربك فبقوا كل من يأتيهم بالامان يجلسونه
ويوعدهم خيربك بأنه اذا تم الامر للسلطان سليم يطلقهم ويبقيهم
على مراتبهم ومناصبهم التى كانوا عليها وباطنه بخلاف ذلك فلما جاءت
الاخبار للسلطان سليم بان السلطان طومانباى قتل القاصد الذى
ارسله السلطان سليم وجميع من معه اغتاظ لذلك غيظا كبيرا وارسل
احضر الامراء المحبوسين بقلعة الجبل من الحراكسة وامر بضرب اعناقهم
اجمعين وكانوا ثلثمائة وستين اميرا منهم ما هو امير مائة مقدم الف ومنهم
من هو امير اربعين ومنهم من هو امير عشرة فلما حضروا بين يديه سألهم
عن مناصبهم فاخبروه فقال لهم السلطان سليم لم تركتم ملككم
وجئتم الى عدوكم قالوا اثرنا خدمتك على طاعته واخترنا ان نكون
من اجنادك فقال لو كان فيكم خير كان لطومانباى فعند ذلك امر
بضرب اعناقهم بين يديه وهو ينظر اليهم فاول من ضرب عنقه تغطبا
نائب القلعة ثم انس باى حاجب الحجاب ثم تمر الزردكاش ثم ازكماس
امير سلاح ثم الامير ازبك المكحل صاحب البيت الذى كان فيه المرحوم
الامير عثمان قائم مقام ثم الامير قانصوه الغاجر ثم الامير مغلباى الزردكاش
ثم الامير قانبك رأس نوبة ثم الامير ماماى المحتسب وهو صاحب بيت
قاضى العسكر ثم الامير يشبك ملوحية ثم جانبلاط الابج وكان قد عمله

السلطان

السلطان طومانباى نائب القلعة ثم الامير خير بك الخازندار ثم خير بك
المعمار ثم بقيه الامراء الذين كانوا جاؤا له بالامان حتى صار الموضع
كالجزيرة ثم امر السلطان سليم بالتعدية الى البر الغربى فكانت كل تعدية
يكون فيها نحو الالفين او اكثر من الروم واما السلطان طومانباى
فانه كان واقفا يترقب بخور بوة عالية واقام واحدا ينظر له الخبر
فلما اخبره بأن الروم وصلت الى البر قال فى نفسه احسن ما يكون ان
اقطعهم اول بأول فعند ذلك رمح عليهم رمحة واحدة فما شعروا الا
وهو كابس عليهم واوقع القتل فيهم فما وصلت التعدية الثانية الا
وقد افنى غالب الاولى فارتج عسكر السلطان سليم وتشتت امرهم
فمنهم من قتل ومنهم من انقلبت بهم المراكب بما فيها فحصل للسلطان
كرب عظيم وندم على فعله ذلك وقال لو اشار على احد بذلك
لقتلته اشد قتلة ولكن بهون الله تعالى فعند ذلك امر ان لا يعدى
احد وان يصفوا ضربزانات على شاطئ النيل ويرموا بها على الذى فى
ذلك البر من الجراكسة فرموا عليهم طلقا ادق بر الدنيا فبينما هم فى
تلك الحالة واذا هم بغبار قد طار من خلف اظهرهم وصيحات وعياط
وخيل قد ملات الوادى فوقفوا ينظرون ما هذا الامر فلما قربوا
منهم واذا بهم عرب غزالة يقدمهم حماد بن خير واخوه سلام
وكان سلام هذا بطلا لا يطاق فبادروا السلطان طومانباى
بالسب والشتم والكف عن محاربة السلطان سليم وقالوا له انكم
ترجع عن محاربة السلطان سليم والا كنا كلنا عليك ونأخذك موسطة
ولكن ارجع الى حيث شئت واخرج من ارض مصر فانكم قد قتلتم منا
خلقا كثيرا فى ايام ولايتكم وما منا من احد الا وله احد قد قتلتموه اما
اخوه واما ابوه واما قريبه وقد ازال الله تعالى دولتكم وجاء
بهذا الملك العادل فقال لهم طومانباى ستنظرون ما ارواحكم بعد
وكف السلطان طومانباى وانثنى راجعا بعد ان خادعهم بالكلام

فلم يقبلوا منه قولا مطلقا فقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم اعلموا يا اغوات ان دولتنا قد زالت واجالنا قد مالت وما بقي لنا في هذه الديار نصيب ولكن لنا اسوة بمن كان قبلنا وانظروا الى هذه الحالة وما النصر الا من عند الله وقرأ قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده فما الرأي عندكم قالوا له الرأي ما تراه وها نحن بين يديك كما تفعله نحن موافقون لك عليه فقال لهم سيروا بنا الى جهة الهرم فساروا فبينما هم سائرون واذا بكردوس من الخيل قد مواعليه فارسل ينظر من هؤلاء واذا به الامير قيت رجبي الذي كان محبوسا بالاسكندرية وقد كان حبسه السلطان الغوري وكتب على قيده مخلد فلما تسلطن طومانباي وحصل له ما حصل تذكر قيت رجبي هذا وكان من الفرسان المحبوبة فقال احق ما يكون ان ارسل فاطلق قيت رجبي واخلع عليه ليكون لنا عونا على هؤلاء الاعداء فكان مجيئه في هذا الوقت فقبل يد السلطان طومانباي وتلقته الامراء وليسوه خلعة السلطنة وساروا معهم الى جهة اهرام الجيزة وبكوا بكاء كثيرا وحكوا الدما وقع للغوري وما جرى لهم من اوله الى اخره فقال لهم بالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ولا تستعينوا الا بالله وكان من اهل الرأي والدين وكان قارئا كاتبا عارفا باداب الحرب ولهذا حبسه السلطان الغوري خوفا من ان يدبر عليه امرا ثم قال الامير قيت رجبي يا مولانا السلطان اختير عندي ان نجعل هذه الواقعة نظما ونكتبها على هذا الهرم ليكون لنا بها الذكر على ممر الدهور والايام وكان بازاء الاهرام فقام السلطان والامراء الى الهرم الغربي فوقفوا عنده قال الناقل فاخذ وشرع السلطان طومانباي ينشد والامير قيت رجبي يسمع والامير شرع يكتب على الهرم هذه الابيات التي جاءت من احسن المعلقات تتضمن

جميع ما جرى لهم من اول الحرب الى آخره نظما حسنا وهى هذه الابيات

دموع العين فاضت من اماقى ... وقلبى ذاب من كثر احتراقى
فلا نارى طفاها دمع عينى ... ولا دمعى يفيض من اختناقى
ونى اسف على اسف وحزن ... وهم فوق هم واشتياقى
على زمن تقضى فى نعيم ... بمصر والعلى والعز راقى
وشمس السعد فى شرف المعالى ... وبدر الضد فى درج المحاقى
ولما ان اراد الله هذا ... اتانا الروم من جهة العراقى
وسلطان الجميع سليم شاه ... عظيم الملتقى مر المذاقى
وكان الماجد الغورى منا ... مليكا شبه بحر فى اندفاقى
وقد قاد الجيوش لنحو حرب ... وكان المرج وعدا للتلاقى
وكان الحرب يوم الحد لكن ... تولى جيشنا والحرب باقى
وسلطان لنا امسى قتيلا ... طريحا والدما فى الانهراقى
وكان لخائن الكلب الغزالى ... وخيربك المبوطن فى النفاقى
هما اصل الهزيمة عن حقيق ... الى حلب كخيل فى سباقى
وصار الجيش من حلب لمصر ... وزاد الكرب مع ضيق الخناقى
وعند حماه خيربك المخامر ... رجع لعد ونا يبغى شقاقى
وفى لشام الغزالى كاد كيدا ... وابرك عاقر كل النوقى
وساروا بعدها سيرا حثيثا ... لغزة ثم مصر فى لحاقى
ولما استجمعوا فى مصر قالوا ... نسلطن ايكم لعد وواقى
ولوا اينا اهل لهذا ... براى الفيل علان الموافق
وسيرنا الشريف بعز جيش ... عشرة الالاف فرسان استباقى
وقد منا على الكل الغزالى ... ولم يعلم بسوء الاختلاقى
فاختار الهزيمة وهو سال ... سلاح الحرب خوفا من مذاقى
وجاء تنا رجال الروم مصرا ... وقد حازوا البلاد مع الاتفاقى

خرجنا بالجموع لنلتقيهم ... وكان الشر يوم الحرب راق
وفي خط المدافع قام قومي ... وزاد في الخضام وفي الخناق
وقد جاءت علينا الروم زحفا ... كبحر مالج في الاندفاق
وزاد الرمي بالبارود حتى ... حسبت الرعد محلول الاطلاق
واطبق كل ناحية ودخ ... واشغل بالمشقة والدقاق
وقلت لكربنا ترى الاعادي ... علينا كالسحاب على الشراق
وقلت الى الفتى علان خفنا ... فليس لنا من الاحيا بواق
فقال اليوم نصليها بطعن ... تموت الناس والذكار باق
وقمنا بعد ذلك قد حملنا ... كاسد لا تخاف ولا تواق
فتلنا من ملوكهم ثلاثة ... واسقيناهم كاس الدهاق
ولما قد رأوا ذا الفعل منا ... اتونا كالجبال بانطباق
فاسقيناهم كاس المنايا ... فخروا للثرى مدكت ساق
وبدت الفوارس في مجالي ... بطعن في الصدور وفي الاماق
وعدنا عودة للأسد لما ... اتوا بالصيد من قلب الوطاق
وقد صبنا الغزالي قد تولى ... واختار الهزيمة بالنفاق
وفي علان جاءت ضرب نار ... وكان بر المنية والفراق
فوا اسفا عليه وقد تولى ... وودعني وداع الافتراق
تظل العين باكية عليه ... بدمع لا يمل كما السواق
وجاء بكتيبه كمثل هذا ... وصار الفخذ منه كانطفاق
كذلك جانبلاط غداطريحا ... ابو يوسف في الشجعان راق
واما قانصوه امير قطيا ... فلم يوقد يوم الحرب واق
وكم قد رمت قتل سليم شاه ... فلم يبارزني وحر الخرباق
وكم قد قلت اين سليم شاه ... يبارزني وحر الحرب باق
واقسم لو اراه غداقتيلا ... بسيفي لو رقا سبعا طباق
ولما ان رأيت الحرب دارت ... على وقد نأى عني رفاق

فوليت الجواد لنحو مصر ... وحسبت الغنا والله باق
وعند طرا اقانا الجيش جمعا ... وسرنا الشرق يا بدر الشراق
وعدينا لمصر لاجل حرب ... كبسنا الروم والديجور باق
قتلنا منهم جمعا غزيرا ... بضربات المهندة الرقاق
ثلاثين بان القتل فيهم ... وفينا والعساكر فى محاق
وقومى قد اراد وا يغدروني ... ويرموني اسيرا فى وثاق
وشاربك احتمى عنى بسيف ... وكان بنفسه لى خير واق
جزاه الله عنى كل خير ... وكان له رحيق المسك ساق
ورحنا قلقشنده ثم عدنا ... وصرنا اجد من غير اشتياق
وجدنا قائما امسى قتيلا ... وفوق الالف معه فى دهاق
فقلت لشاربك اذهب سليما ... واحذر من طبيعات الحماق
فان علاءنا جمع عظيم ... كمثل البحر زايد فى تراق
فقال اليوم نصليها بطعن ... كمثل السم لا ينفعه راق
وقاتلنا الجموع وقاتلونا ... ونحن على المضرة والعناق
وبعد الظهر جاء تنا جيوش ... عداد الرمل جمعا فى انطباق
وما زالت البلاد بهم الى ان ... حسبت الحشر قام مع التلاق
فقلت لرفقتى خلوا وقلوا ... وولينا جميعا بافتراق
دخلت البيت بخيمه لقانى ... جموع من نسانا فى زعاق
وقاموا فى ضجيج مع نحيب ... وجاء نخ خوند بثوب طاق
وقالت لى تخلفنا على من ... وليس لنا ترى فى الحى واق
وتهرب من ذئاب وانت ليث ... طويل ناب والمخلاب باق
وفيك السابقا لكل خير ... وفيك اللاحقا مع البواق
فخلصنا من الاوام رياذا ... فانا فى مضيق وانغلاق
فقلت لهم ورب البيت انى ... صبوح الضرب بالبيض الرقاق
احب الى من شرب الملاهى ... على كاس وابريق وساق

وشرب دما الفوارس كل يوم مدامى واصطباحى واغتباقى
وانى ذهبت الى اعتذار لقد قلت جموعى مع رفاقى
وعنترغاب عن عبلى سنينا بقيد الاسر فى ارض العراق
ونام الزير دهرا عن كليب وبعد سنين جا ما يلاقى
وان النيل يعلو بعد نقص ويرقى الاوج من بعد انحاق
وانا الليث يهرب من لهيب ويرجع رجعة كالسهم فاق
وانى بعد ما امضى ثم اتى كرجعة عنتر يوم السباق
فعادت وهى نادبة بقهر تضج الضج من الم الفراق
وقالت يا طوما بنا الفدى فراقك عندنا مر المذاق
فسافر فى امان الله انى ودعتك للذى رفع الطباق
فرجعت الجواد ودمع عينى كسيل سال من بحر الاماق
وسافر للصعيد فحزن جيشا كما قالوه راقا فوق راق
وجاتم قدامى وبدا بحرب فولى هاربا دون الزقاق
وسرت لنحو مصر فى جيوش تقاد مع الحمولة والنياق
ورزمك قد لقانى فى طريق فيا له ماجد طلق طلاق
وصبحنا جيوش الروم صبحا على الجود المضمرة العتاق
ورزدنا القتل حتى كل سيفى واشكل نيل مصر بانهراق
وقد رهنا نعد البحر لكن غزالة قد اتونا فى استباق
ورامو احربنا وبغوا علينا وان البغى اشام الاختلاق
فعدنا عن قتال الروم قهرا لعينا قيت سيد من يلاق
وعلقنا على الاهرام شعرا كنظم الدر فى حسن النساق

قال الراوى

فاقتضى راى السلطان طوما بناى ومن معه من الامراء ان يدخلوا الى دمشق ويناد فى البلاد ان الخراج بطال ثلاث سنين وان من اراد القتال ونصرة السلطان طوما بنا فليسرع

الينا وله مالنا وعليه ما علينا فلما كان كذلك اجتمع لهم عالم عظيم
من عرب وفلاحين وغيرهم ثم اقتضى رأيهم ان الامير شربك
يكون باشا على عشرة الاف فارس راكب وماشي الى قتال
السلطان سليم فاى محل صادفه فيه وان السلطان طومانباى
يستمر في دهشور حتى يأتيه الخبر من عند شربك هذا ما كان من
امر هؤلاء واما ما كان من امر السلطان فانه ضاق صدره وندم على
دخوله مصر وخشى ان يطول عليه المطال ويدخل عليه الشتاء
وينقطع عنه خبر بلاده وخشى من امر النصارى ان يدبروا امرا في
غيبته على اخذ الممالك الاسلامية فاشتغل فكره ودخل عليه
الوسواس فنوى ان يبطش بخير بك فانه هو الذى حسن له التوجه
في اخذ مصر وخصوصها وعده السلطان ان يجعله باشا على مصر
الى ان يموت فبينما هو في هذا التفكر وقد دخل عليه الوزراء واخبروه
ان بلاد الاطيخية خرجت عن طاعة السلطان سليم وقامت
العربان كلها على ساق لنصرة السلطان طومانباى فازداد غما على غمه
فاقتضى الرأى ان يرسلوا بجريدة تمهد العربان وتأمرهم بطاعة السلطان
سليم وانه ما قصده الا عمارة البلاد وانه لا يحصل منه اذية لاحد
من العرب ولا من الفلاحين وانه كل من عاند او خالف ليس له جواب
الا السيف فقال السلطان من يكون سردار على الجريدة فقالوا كل
من اختاره السلطان فقال يكون قانبردى الغزالى فانه يعرف بأمر
هذه البلاد ويقتال العربان فلما حضر امره السلطان بذلك فاجاب
بالسمع والطاعة وقال امر العربان هذا اسهل ما يكون ولا يهتم
مولانا السلطان بشئ من ذلك ايدا قال الشيخ احمد بن زنبل الرمال
ان السبب في وصول الغزالى الى طاعة السلطان سليم هو انه
لما عاكس السلطان طومانباى في امر المدافع وغطوهم بالرمل عنا
وتكبرا منه ومن بعض الامراء فلما حصل ما حصل من الهزيمة في وقعة

الريدانية وانهزم من جملة من انهزم وحسدا منه للسلطان
طومانباى وكان قصده ان يتسلطن هو فلما اقتضى رأى الامير
علان والامير شربك الاعور والامير كربناى الوالى والامير
قانصوه العادلى والامير ابرك رأس الجلبان وبقية الامراء
والاعيان ان يسلطنوا طومانباى لما يعلموه من فروسيته
وشجاعته وديانته وانسانيته وتواضعه وزهده فى
الدنيا وعدم التكبر والتجبر وليس يستحق السلطنة الا هو فلما
كان كذلك غلب الحسد على قانبردى الغزالى والبغض لابناء جنسه
حيث انهم لم يؤهلوه للسلطنة وقد موا عليه طومانباى وكان
احق بها واهلها نسبة الى عزه والغزالى اخذ يعاكسهم فى كل امر
دبروه ويخطئ رأيهم فيما يفعلونه فعلم السلطان طومانباى
والامير علان انه ملاح عليهم فاراد الامير علان ان يبطش
بقانبردى الغزالى فقال له السلطان طومانباى لا تفعل فقال
له اما تنظر الى معاكسته لنا وعناده قال اخشى انك ان قتلته
ربما تقع الفتنة فى عسكرنا وينخرم نظامنا ولكن اصبر الى ثانى مرة
وما يكون الا ما يريده الله تعالى ولا يغلب الله غالب والله سبحانه
وتعالى يعلم اننا ليس لنا رغبة فى قتل احد وانما هؤلاء القوم بغوا
علينا ويريدون ان يأخذوا بلادنا واموالنا واولادنا ويستكوا
حريمنا فوجب علينا ان ندفع عن انفسنا وعن اموالنا واهلنا
واولادنا دفع كل من قدر على شئ ان يفعله والله يفعل ما يشاء
فقال الامير علان والامير شربك والله ما دام هذا الخبيث
الولد الزنا بيننا لا ينتظم لنا نظام ابدا وما دام خير بك مع عدونا
لا يريد الخصم عنا ابدا فقال السلطان طومانباى والله ثم والله
ليس لى رغبة فى سلطنتى وانما انا واحد منكم ولولا انكم اخترتمونى
والزمتمونى بذلك ما طاوعتكم فى شئ من ذلك ولكن لله التدبير

فلما انهزم قانبردى الغزالى تبعه اثنا عشر اميرا فصاد فى منهم
الامير سودون الدوادارى ضرب زان اخذ فخذه فسار معهم
الى قليوب وهو بالاخذ فتصفى دمه فمات هناك ودفن بها
فجاء بعد ذلك على باى واخرجه من قبره وحمله الى مصر ودفنه
فى تربته وتم الامير قانبردى الغزالى ومعه احد عشر اميرا وكان
من جملتهم رزمك الناشف الى ان وصلوا الى الامير احمد بن
بقر فخرج الى لقائهم ورحب بهم واقام بخدمتهم ومازالوا
عنده والاخبار ترد عليهم وشاع ذكر طومانباى وماظهر
منه من الفروسية وما فعله فى عسكر السلطان سليم وما
قتل منهم وكذلك الامير شربك الاعور والامير قانصوه الغالى
وغيرهم من الاعيان الذين تبعوا السلطان طومانباى فحصل
عندهم الغيرة من ذلك فان الجراكسة كانوا قوما نفوسهم
شامخة واعطاهم الله تعالى الشجاعة والفروسية وكانت هى
فخرتهم فكان كل منهم تحدثه نفسه انما يكون سلطانا الا هو
فلهذا اخذوا عن دابرهم فان اخذ الملك ليس كان عندهم الا بالشجاعة
والملك ليس بقوة وانما هو امر الهى يعطيه الله لمن يشاء من عباده
ولما ترادفت الاخبار بما فعله طومانباى صاروا يتعجبون من ذلك
فان طومانباى ما كان مشهورا عندهم الا بالدين والصلاح وكان
الذى ينظره بهذه السكينة والوقار لا يشك فى صلاحه وكان
محبوب الصورة عند كل احد فلما صارت منه هذه الشجاعة
والفروسية صاروا يتعجبون فقال لهم الامير رزمك الناشف
انا سمعت قول القائل الشجاعة صبر ساعة فقالوا له صدقت
يا امير لكن من يصبر على ملاقاة هذه النيران وضرب الزانات
والبندقيات ولو كانوا مثلنا يقاتلون على ظهور الخيل كان الواحد
منا يقاتل منهم مائة ومائتين لانهم ليس عندهم معرفة فى ركوب الخيل

ولا الجولان فى الميدان فقال الامير زمك الحى ماله قاتل وقال
فى نفسه ما ثمرة بقائنا فى هذا المحل وسلطاننا يقاتل بنفسه
والله ليس هذا من المروءة ونوى على الذهاب الى السلطان طومانباى
وبات ما اصبح فتفتش عليه الغزالى فلم يجده فعلم انه سار الى السلطان
طومانباى فخشى انه اذا قام يوما اخر رجعت بقية الامراء الى
طومانباى ويخبره بمحل الغزالى الذى هو فيه فقال فى نفسه وتكلم
مع الامراء الذين معه وقال لهم يا اخوان علموا ان دولتنا قد
ولت وما بقيت هذه البلاد لاحد هذا الملك والاولى والاحسن
ان نذهب اليه ونأخذ له امانا فاذا حصرنا فى امانه امنا على انفسنا
واموالنا وحرمنا وايضا ليس هو مقيما فى هذا الاقليم فانه حيث
تمكن من البلاد يأخذها وقتل طومانباى اقام خيربك نائبا عنه
وذهب الى بلاده فاذا ذهب عنا بقيت البلاد فى ايدينا نتصرف
فيها كيف نشاء قالوا له ومن اين لنا انه يعطينا الامان قال لهم انا
اضمن لكم ذلك فان بينى وبين خيربك اتفاقا باطنا لا يعلم به احد
الا انا وهو فعند ذلك اطاعوه وذهبوا معه الى ان وصلوا الى
كيمان الريش وارسل اعلم خيربك بقدومه ففرح خيربك بذلك
فرحا شديدا وذهب الى حضرة السلطان سليم واخبره بذلك
ففرح السلطان ايضا فرحا عظيما وارسل له خيربك والوزراء وا
دولته فتلقوه ودخل من باب القنطرة فى موكب عظيم وخلع عليه
خلعة عظيمة من اعظم خلع الملوك وقابل السلطان سليما وترحب
به وامنه وامن جميع الامراء الذين كانوا معه وصار معززا مكرما
عند السلطان سليم وعند عسكره ونرجع الى سياق الحديث قال
فلما اخبروا السلطان سليما ان العربان قامت على ساق وعصوا
وخرجوا عن طاعة السلطان واقتضى رأى السلطان فى ارسال
تجريدة فارسل الغزالى باشا على العسكر وكان معه خمسمائة فارس

من الجراكسة وخمسمائة رامى بندق من اليكنجرية الى برالا طفيحية
فلما وصل الى اطفيح ورأى البلاد كلها قائمة على ساق والعربان مجمعة
وراوه قصدوه وبادروه بالسب والشتم ثم وقع بينهم الحرب
فكانت الكسرة على العرب فانه بادر برمى البندق فلم يثبتوا لذلك
فولوا هاربين فتفقاهم ومزقهم كل ممزق وشتتهم وامر بنهب
بخوعهم وسعيهم وحريمهم واولادهم وارسل جميع ذلك الى
السلطان سليم فامر ببيعهم فى الرميلة فبيعت النساء والاولاد
الاحرار كما يباع الرقيق ولكن بابخس قيمة فصارت الناس كل من
كان فى قلبه رحمة يشترى منهم الذى يشترى ويعتقهم فى الله
ووقع على الغزالى من دعاء العامة ما لا يحصى عددا حتى دعت عليه
اليهود والنصارى ولما سمعت العربان بذلك عصبت جميعا *
وكذلك العشير والخوف وكان سيدى يحيى بن الامير ازبك صاحب
بركة الازبكية لما كانت وقعة الريدانية وانهزمت الجراكسة
تم على ظهر فرسه الى بلاد بنى حرام وكان بينه وبينهم مصاهرة
وتم مقيما عندهم والاخبار تتنقل اليه وترد عليه وقلبه مع
طومانباى ولكن لا وصول له اليه فلما كان كذلك وعصبت
جميع العربان والبلاد رأى له طريقا الى الخروج فصار هو وبنى
حرام يخرجون ويدورون فى البلاد والطرقات حتى وصلوا
باب النصر وباب الشعرية وكل من وجدوه رومى قتلوه فقتل
من الاروام خلقا كثيرا خصوصا من الاروام الذين يسمون بجم
اوعلان فانهم كانوا يدورون ينهبون كلما يجدونه من مأكل
وغيره فكانت الزعر والفلاوية وحسن القتل فى ذلك الزمن وكان
سيدى يحيى بن الامير ازبك شجاعا عظيما وكان من الفرسان
المشهورة حتى اجمعت الناس على انه كان فريد عصره ووحيد دهره
فى كل فن من فنون الحرب وكان فيه محاسن تفوق عن الوصف

فلما سمع بان السلطان طومانباى يقاتل السلطان سليما عند المناوا
ورحل عنها الى دهشور وانه جعل الامير شربك الدوادار الكبير
مقام نفسه فى جميع امورة واشترط على نفسه ان ايده الله تعالى
ينصره جعله ولى السلطنة من بعده لاجل ما نظر من شجاعته
وقوته فى الحرب فعند ذلك قام سيدى يحيى بن الامير ازبك وعزم
على التوجه الى السلطان طومانباى وعدى من الشرق الى البر الغربى
وتمم سائرا وكل من تلقاه من العربان يترحب به ويفرح به ويلتم
اليه فانه كان مشهورا ومخبورا عندهم بالفروسية فلا زال
سائرا حتى وصل الى دهشور واجتمع بالسلطان طومانباى ففرح
به السلطان وسأله عن حاله فاخبره بما فعله هو وبنو اخرام من
قتل الارواام فشكره السلطان على ذلك وامره ان يكون مع الامير
شربك من اصحاب المراتب قال الراوى هذا ما كان من امر هؤلاء
واما ما كان من امر السلطان سليم فانه لما نظر الى هذه الامور
المفزعة والاحوال المطربة خاف على نفسه وضاق صدره من
اجل ذلك وتحير فى امره فقال لارباب دولته ماذا تقولون فى
هذه الطائفة القليلة كلما اقول ان امورهم هانت فما اراها الا
تزيد فى كل يوم وقد حصل لنا منهم غاية الضرر فقال يونس باشا
والله كاد رجوعنا من الشام هو الصواب الا ان خيربك لما مات
وعدته بان يكون ملك مصر ما دام حيا صار يدبر فى تحصيل
مراده ولا قدرة له على ذلك فهو يحسن لنا ولانا السلطان العبارة
ويسهل لك الامور ويظهر لك انما قصده الا ان تكون البلاد
بلادك والحال انه فى باطن الامر انما يستعين بك على بلوغ مراده
وهو هلاك ابناء جنسه واستقلاله هو بالبلاد والملك وترجع
انت ونحن معك ان سلمنا ويستقل هو بالبلاد لنفسه وقد
طمعت امانه بأنك لا تأخذ منه مالا ابدا فهو مجتهد فى ذلك غاية

الاجتهاد فحصل عند السلطان سليم تغير عظيم على خيربك حتى
ايقنوا جميعين بانه لا يبقى عليه ابدا وكان يونس باشا الذى
هو الوزير الاعظم يكره خيربك فى الباطن لما رأى منه من
قلة الخير فى حق ابناء جنسه وكان ليونس باشا من الاخلاق
الحميدة والاوصاف الجميلة ما يفوق الوصف وكان يعرف
ان خيربك ما قصده الا بلوغ مراده ولكنه دخل فى عقل السلطان
سليم وصار يصغى لقوله وصار السلطان متحيرا لانه ان قتل خيربك
وهو مجنون فى مصر قامت عليه جميع البلاد من الشرق والغرب
فقال السلطان سليم لارباب دولته انا نحن قد اخذنا ارض
هؤلاء القوم وسبينا حريمهم وقتلنا اكابرهم فما ذا نريد بعد
هذا وكفى ما قد جرى وصار الاحسن فيما ارى ان نجعل بيننا وبينهم
صلحا ونترك لهم بلادهم فاشاروا عليه بارسال خوشقدم فقال لهم حبا وكرامة
ولكن اذا لم يوافقوا على ذلك فلا كنت انا اول من يقاتلهم ثم خرج من عند
السلطان سليم فطلبه يونس باشا واوصاه بانه لا يغلظ عليهم
فى الكلام فان الكلام الذين تقبله النفوس فلما وصل خوشقدم
الى دهشور رأى جيشا عظيما وخيلا كثيرة فلما وصل اليه قالوا
به الامير شربك ومعه هذه العساكر وهو قاصد قتال السلطان
سليم فلما اجتمع به ووقعت العين فى العين قال خوشقدم يا معشر
الامراء والسادات انى اريد الامير شربك واتكلم انا وهو فيما
يكون فيه الصلاح لنا ولكم فتقدم الامير شربك وعن يمينه الامير
ابرك رأس الجلبان وعن يساره قانصوه العادلى والامير قلج
وحركوا خيولهم وقد خرجوا عن قومهم حتى التقوا بالامير خوشقدم
وصار بينهم قدر رمحين فكان البادى بالسلام الامير شربك
فرد عليه خوشقدم السلام فقال الامير شربك ما معك ايها
الامير وفى اى شئ جئت فقال جئت فى الصلح بينكم وبين هذا الملك

الذى هو سليم شاه الذى هو اعظم ملوك الارض ولست ارى لكم
ان تعاد وه والرأى عندى ان تدخلوا تحت طاعته احسن من
ان تصيروا فى قبضته وتذوقوا بين يديه العذاب ويقطع منكم
الرقاب لانه ارحم عليكم وانتم ارحم على ارواحكم وارقابكم
واولادكم ونسائكم وعيالكم فكفوا شره عنكم فقال الامير
شريك اما انت فامرك امر عجيب فقال لماذا قال لانك كنت تقول
قبل هذا الملك الذى يقول انه اعظم ملوك الارض ان جاء من الروم
الى ارضنا اول من يقاتله انا واكون فداء لابنا جنسى جميعا فلما
ذهبنا الى شرقاطغيج ورجعنا الى حرب عدونا وضربنا الراى ان
نكبس عليهم ليلا فهزمت انت منا ورجعت الى عدونا الذى كنت
تقول انك اول من يقاتله واخبرتهم بما دبرناه واطلعته على ما اضمرناه
فلا ادرى ما فعلت ذلك من جبن فى قلبك او خلل فى عقلك وعجب
من هذا انك جئت اليوم تزعم انك تريد الصلح فلا ندرى اخصم
انت ام حكم فقال له خوشقدم صحيح انى فعلت ذلك وما فعلته
من الحرب ولا خوفا من الطعن والضرب وانما فعلت ذلك لما
انى رأيتك صرت دوادار كبير وتعاليت علينا هذا العلو الزائد
كرهنا ان نكون تحت امرك وان ننقاد لقولك وفعلك فقال له
الامير شريك من حسن عقله وحلاوة لسانه وطول روحه
وادبه فى جوابه والله يا امير خوشقدم لو اخذت انت هذه
الوظيفة التى حسدتنى عليها لكنت اول من يخدمك فيها ويقوم
بحوايجك فقال له خوشقدم بعد ان بخل منه واستحى والله انا
كنا حسدناك عليها ولكن لما سمعنا عنك ما لم نصدق من
الفروسية والشجاعة ورأينا ذلك عيانا قلنا والله انه احق
بها واهلها ولولا ان السلطان طومانباى يعلم منه انه يستحق
ذلك ما اعطاه له ولكن هذا قليل من ابن حتى يكون فى مرتبة كربتاى

الوالى فلما سمع الامير قلج منه هذا الكلام ما ساعه عقله ان يسكت
عن الجواب فقال له وانت لو علم الله ان فيك خيرا اعطاك اعلى
منا ولكن الله تعالى علم انك رجل خائن خارج عن حد ك مارق
عن ابناء جنسك فلما سمع خوشقدم هذا الكلام اخرفه زا
وكان عنده طيشان عقل وخرجت منه الحدة فثلث قطاريته
وطعن الامير قلج طعنة بقوة عزمه يريد بها هلاكه فاخلى عنها
بمعرفته فراحت فى البطال ومن شدة الطعنة كاد ان يسقط
خوشقدم عن جواده فلما عاين ذلك الامير شربك خرج منه الحدة
وكان فى يده طبر جناح مكتوب على ظهره بالذهب هذا دليل لنهب
الارواح فضرب به خوشقدم على قطاريته فأبراها كما تبرى
القلم فلما سقطت قطاريته من يده جذب سيفه وقصد الامير
شربك فضربه ضربة ثانية بالطبر على خودته فقطعها وجرح راسه
جرحا عظيما فلما رأى الدم على وجهه ولى هاربا فلما رأوه اتباعه
ولى هاربا والدم يقطر من لحيته ولو اوتبعوه منهزمين فتبعهم
شربك قدر ميل ورجع عنهم فما سلم منهم الا القليل فلما وصلوا
الى اوطاق السلطان سليم وشاع الخبر بان خوشقدم منهزما
وولى مجروحا ووصل الخبر الى السلطان سليم اغتاظ غيظا عظيما
فأمر باحضار خيربك فقال له انى اريد الرجوع الى دار سلطنتى
لان الاعادى فى حوالى مملكتى وقد قرب الشتاء واشتد الغلاء
واترك هذا الخراب لاهله فلما سمع خيربك ذلك عسر عليه هذا
الامر وقال يا مولانا السلطان ان فعلت ذلك سقطت من اعين
الملوك ويقولون هرب من الجراكسة ولكن الصبر عاقبته الفرج
ومن تأنى ينل ما يتمنى فعند ذلك امر باحضار من كان مع
خوشقدم من الاروام وقال لا تاتونى بجركسى ابدا ولا تروني
احدا منهم وكل من يجيب اسارى يجيبهم قدام الخيمة ويقوم

المشاعلية يقطعون رؤسهم وكل من يجيب رأسا يؤديه الى
الوزير الاعظم فلما وقف كبيرهم بين يدى السلطان قال له
اما اجتمعت بطوما بناى فقال لا والله ما اجتمعنا به وانما وجدنا
شريك وهو سائر الى جهتنا وقاصدنا فقال السلطان فى كم
فارس يكون قال معه الف فارس من مدرع ولابس وفى الحديد
غاطس وهو امامهم يقول فى نفسه انه يقدر ان يفتح بهم الارض
شرقا وغربا فقال له السلطان انت نظرت شريك الاعور قال
نعم وقربت منه حتى نظرت فى وجهه فقال له السلطان صف
صفته فافهم وصفوه عندى مرارا كثيرة فقال ليس هو طويلا
ولا قصيرا وانما هو شرطة الناس وليس هو سمينا ولا رقيقا الا
ان قوائمه كقوائم البعير اعرض ما فيه صدره واكتافه وذراعاه
حتى الى المون عرفى الوجه وليس هو اعور كما يقولون وكما يسمونه بالاعور
ولا به حول وانما اذا مال بعينه الى جانب يكون احد بياضها اكثر
من سوادها فلما سمع منه السلطان هذا الكلام قال له صدقت
ثم قال له وهل طال الكلام بينهما حتى تمكنت انت من النظر اليه
فقال نعم حتى انى سألت من جماعة خوشقدم عنه فقالوا اننا
رأيناه باعيننا وهو يمسك النحل الجاموس من قرنه ويجذبه
فيقلعه من مكانه ويلوى قرونه بيديه فيقلبه على جنبه والناس
ينظرون اليه فقال له صدقت انى سمعت عنه ذلك ولكن اذا
نزل القضاء عمى البصر فلا تفيد الشجاعة فسوف ترى انى سأقبض
عليه واقطع رأسه وانت تنظر اليه فان دولتهم قد انعكس
طالعها ثم ان السلطان القى كليته الى الحرب وامر ان تمسك جميع
المراكب ويجعلوها صفا واحدا من بر مصر الى بر الجيزة وان
تربط فى بعضها باحكام واتقان وامر ان تعدى العسكر على
المراكب ففعلوا كما امر واخذ معه نحو اربعين الف خيال ومثلهم

مشاة غير اتباعهم ولكنهم نقاوة النقاوة من شجعان عسكره
وطلب فقال الامير طومانباى وترك فى مصر الوزير يونس باشا
وبقية العساكر واوصاهم بحفظ البلد واخذ معه خير بك
نائب حلب واوصى الوزير الذى هو يونس باشا انه اذا اجاء
الغزالى برسالة فامر الوزير من وقته وساعته بكتابة مرسوم
الى جانبردى الغزالى يأمره بان يعدى الشرقى الى البر الصعيد وان السلطان
سليما يريد قتال السلطان طومانباى وهو مجد له فى الطلب وان
اذا وصلت اليك تلك المكاتبة تكون على اهبة حتى تجتمع بالسلطان
سليم وتكون انت وهو على طومانباى حيثما يكون وحيث ذهب

ذكر تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة

قال فلما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة ومعه سيدى محمد
ابن المرحوم السلطان الغورى وكان سيدى محمد قد قابل السلطان
سليما فى اول دخوله مصر على يد اخى جلبى وقاضى العسكر محمد
افندى بحكم وعهد وكتبه له السلطان سليم وحلف له ايضا
انه لا يضره بوجه من الوجوه ابدا ولما قابله اكرمه السلطان
غاية الاكرام وخلع عليه خلعة تليق بالملوك وزاد فى اكرامه حتى
اطمأن اليه وصار ياخذه معه فى كل محل ذهب اليه ولما عدى
السلطان سليم الى بر الجيزة كما تقدم وصار يسير بهم على الراحة
لاجل ما معهم من المدافع والضربزانات والاحجار والاثقال
قال الراوى هذا ما كان من امر السلطان سليم وسيره بالعساكر
واما ما كان من امر شربك فانه سار بمن معه حتى وصل الى
بر الجيزة وعن يمينه الامير قانصوه العادلى وسيدى يحيى بن
الامير ازبك والامير دولتباى كاشف الجيزة والامير ياردباى
وعن يساره الامير ابرك رأس الجلبان والامير تمر الزردكاش
نائب الاسكندرية والامير دولتباى الكبير كاشف الصعيد *

والامير قلج صديق الامير شربك وهم سائرون فقال الامير شربك
والله يا اخواني اظن والله اعلم ان في هذا اليوم تقع لنا
مضايقه من قبل عدونا فان قلبي قد جربته ما حدثني بشيء الا
وقد صاد في الصحة ولكن قال العارفون من ثبت نبت
والشجاعة صبر ساعة فبينما هم في هذا الكلام الا وقد ظهر على
بعد جيش عظيم والتناجق والاعلام فقال لهم الامير شربك
رايتم ما قلت لكم ولكن تأهبوا وقفوا مكانكم واما السلطان
سليم فانه لما عاينهم عرفهم فانه قد جاء له بدوي من عرب الفيوم
واخبره بأن شربك الاعور قادم عليك ومعه الفان من خيار
عسكر طوما بناي كل واحد في نفسه يقول انه يلقاك بمفرده
فعند ذلك امر السلطان سليم الرماة ان يبدؤا بالرمي ولما تقاربوا
لبعضهم حمل الامير شربك عليهم حملة واحدة ودكس عليهم فلما
عاينوا ذلك رموا عليهم طلقا من البندق والمدافع والمكفيات
والسبقيات حتى ادوت الدنيا وتزلزلت تلك الصحاري ولا تبقى
احد ينظر احدا فهلك من هلك وهرب من هرب وثبت من ثبته
الله ولكن الامراء الذين تقدم ذكرهم لم يهلك منهم احد ولم يهرب
منهم احد بل توكلوا على مولاهم واسلموا امرهم اليه وحطوا ايديهم
في الروم وقاتلوا قتال من ايس من الحياة وقاتل الامير شربك قتال
الجبابرة فما مضى من النهار قدر نصفه الا وقد تقهقرت الروم الى
ورائهم ورأوا من الامير شربك ما لا يرونه من احد غيره فعند
ذلك امر السلطان سليم عسكره ان يتفرقوا عليه من كل جانب
فصار كل من قرب منه هلك لوقته فلم يقدر واحد منهم ان يضربه
ضربة لا بسيف ولا بعود وصار يصرخ فيهم ويقول خلوا عن
الحرب يا علوج الروم وارجعوا الى شوربتكم وبوظتكم ثم
كلمهم بكلام فاحش ذكره الحاج فارس وهو غلامه الذي كان

وراء ظهره بالجنيب قال وقد استقل الروم حتى عجزوا عنه بجملتهم وايسوا منه ولم يبق احد منهم يقربه فانه كل من قاربه هلك وهو ينادى ويقول اين انتم ياسليم يا من يريد ان يكون سيد الملوك والسلاطين ابرز الى الميدان ان كنت سلطان آه ياجبان يا ابن الجبان يا من يقاتل المسلمين بالنيران ثم التفت عن يساره فوجد كردوسا من الروم نحو الالفين واكثر قد احاطوا بالامير دولتباى كاشف الجيزة فمال عليهم ميلة منكرة فما شعر الروم الا وهو حاطم عليهم حطمة الاسد الغضبان فانه لما راح السلطان الغورى بهذه الامراء والعساكر الى مرج دابق كانت عسكره من جلجولية الى الجون ولو كان احد يقول ان هذا العسكر ينكسر ابدا ولو اجتمع عليه اهل الدنيا فانه كان كل واحد من هؤلاء الامراء يقول فى نفسه انه مقوم بجيش وحده ولكن لما اختلفت كلمتهم وقامت النفوس بعضها من بعض ولاحوا على بعضهم فكسروا بعضهم جبرا وكسروا ملكهم قهرا فلما التحم الحرب مع السلطان سليم لم يصبروا غير ساعة وهى من طلوع الشمس الى وقت الغداة وكانت الكسرة عليهم قال الراوى وما زال الامير شربك كلما سمع الجاووشية يصيحون على الطوائف ويحرضونهم على الحرب فيعيدونها فيحمل بنفسه عليهم حتفا ويقول ان هؤلاء احق بالقتل من غيرهم فانهم يأمرون الناس بقتل بعضهم ويحرضونهم على ذلك وهم لا يقاتلون شيئا بل يكبرون العمائم ويجهرون بالاصوات ثم عمد الى ناحية من الجاووشية وقاتل قتالا لا يدخل تحت الحصر حتى صارت الرجال مطروحة اقرانا فوق اقران واما باقى الامراء من الجراكسة فان كل امير منهم كسر من بين يديه من العساكر ولكن ما ولت الروم كل الهرب وانما تقهقرت مواكبهم وتبخت كتائبهم وعجزوا العجز العظيم وذاقوا البلاء العميم لانهم فى طول عمرهم ما قاسوا قتالا

مثل هذا اليوم وكان السلطان سليم يتأوه ويتحسر ويتقلق
ويتضجر ويقول ما كنت اظن ان اقاسي من احد مثل ما قاسيت في
يومي هذا ولا كنت اقول الى بهذه العشرة الاف فارس وراجل
التي هي خيار قومي ويتبعها اكثر من عشرين الفا التي في هذا الامر
الذي هو في اقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه ويفني اكثر عسكر
فقال له خير يا مولانا السلطان كذلك انا اقول
ما كنت اظن ان شريك هذا بهذه الصفة ولا كنا نعتبره بين الفرسان
ولكن ابرز انت بنفسك للعسكر وازجرهم وامرهم بالحملة لعل ان
يكون بسعدك النصرة لك فعند ذلك خرج السلطان سليم على
عسكره وصاح في وجوه اكابرهم للحرب للحرب ما هذه الفترات
اين تذهبون والى اي ارض تهربون ثم انه صار يوعدهم بالترفي
والعطاء الجزيل ويقول لهم انظروا لهم فانه ما بقي منهم الا نحو
الخمسمائة فارس انزلوا عليهم بجمعكم وابطشوا عليهم بقوتكم ولا
تبقوا منهم على احد واقطعوهم الى ابد الابد واسرعوا في الحركات
فلما تكلم السلطان سليم بهذه الكلمات المعجزات مع اكابر دولته
خرجوا من بين يديه وهم لا يدرون ما يصنعون وصاحوا على
الطوائف المجتمعة وحمل كل صف من ناحية وكانت الجراكسة قد
ايقنوا بالنصر والظفر وعادوا ان في ذلك اليوم الموت الاحمر والبلاء
المنتظر ولكن اذا نزل القضاء عمي البصر وما بقي مع الامير شريك
الا نحو خمسمائة فارس من الالفين الذين كانوا معه واما البقية
فمنهم من قتل ومنهم من هرب ولكن لم يهرب منهم احد من ضرب
سيف ولا عود ولكن انما هربوا من النار ومن البندق والضربات
وكذلك الذين قتلوا لم يقتل منهم احد بالسيف الا القليل جدا
وانما قتلوا بالبندق والنار ولما كانوا هزموا الروم ووقفوا
حول الامير شريك وهو بينهم كالاسد وكل منهم يدعوله ومنهم من يقبل يديه

ومنهم من يقبل رجليه لما رأوا منهم من الشجاعة التى لا تسمع الا عن عنترة
ابن شداد فصار يسأل عن الامراء ويتفقدهم واحدا بعد واحد
فما وجد واحد منهم قتل ولا جرح ففرح بذلك وانما الذين قتلوا
والذين هربوا كلهم مماليك واتباع واما الرؤس الاعيان مثل
الامير قانصوه العادلى والامير يحيى بن ازبك والامير قانصوه
كرت والامير ابرك رأس الجلبان والامير ولتباى كاشف الجيزة
والامير ولتباى كاشف منفلوط وكان صديقه فلج يساره
ويتحدث معه حتى مر على الامراء المذكورين جميعا وهو يتفقدهم
هل جرح منهم احد فوجدهم كلهم طيبين فقال لهم الشجاعة صبر
ساعة انظروا الماصبرتم كيف ظفرتم وايدكم ربكم فثبتوا نفوسكم
حتى يتم الامر لكم ومن تعب منكم يقف فى مكانه ولا يولى دبره
فيكسر قلب اصحابه ويطمع الاعادى فينا وكلما كنتم حزمة واحدة
كنتم انتم الغالبين فقالوا والله يا امير ليس منا احد يهرب لا من
طعن ولا من ضرب فان هؤلاء القوم قد عرفناهم ليسوا بافرس منا
ولا اشجع منا حتى نهابهم وانما ضررتنا من هذه النار وهذا
البندق والرصاص ومن هذه الضربزانات التى لو رموها على
الجبال لازالوها قال لهم لا اعتبار بشئ من هذا مطلقا والحى
ماله قاتل والانسان اذا فرغ اجله مات وهو على فراشه وقد
قال مولانا سبحانه وتعالى لكل اجل كتاب فلا يزيد العمر بالهرب
ولا بالثبات ينقص العمر يومك يومك طيبوا نفوسكم ولا تجبنوا
فان الله تعالى يكره الجبان واعلموا انكم ما تقاتلون الا عن حريمكم
واولادكم واموالكم وبلادكم فمن قتل منكم مات شهيدا ومن
عاش منكم عاش سعيدا واما هؤلاء فانهم باغون عليكم والباغى
له مصرع فبينما هم فى هذا الكلام وظنوا ان الروم قد بطلت
همتهم عن الحرب واذا بهم قد اقبلوا عليهم زحفا مثل قطع الغمام

فصاح عليهم الامير شريك الحملة اسرعوا يا كرام غير لئام فكان
هو اول من حمل بعد ما فرغ منه الكلام وتطح الجيش بصدره
كانه الليث الضرغام فرمت عسكر الروم اول طلق والثاني
والثالث بالبندق والضربزانات حتى صار البندق والاحجار نازلة
كالمطر المدرار والجراكسة قد التحموا في الروم حتى صار بينهم
حملات ومحاربات ومصادمات ومهاجمات ومضايقات مما لا
عين رأت ولا اذن سمعت وصار لهم رقع بالسيف والدبابيس
على الابدان كرقع مطارق الحداد على السندال او كوقع حوافر الخيل
على الحجر الصوان وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعه الاذهان وكان
لهم يوم مشهود لم ير مثله في قديم الزمان وكان الامير شريك
قاله في هذا اليوم قتال من استقل كالليث الغضنفر ان مال على
جماعة طحنها او على طائفة مزقها وفي يده سيف يقطع الاعمار
قطعا ويصدع الاكباد صدعا فلم يكن الا شيء قليل حتى انطفت
جمرة الروم وخمدت وكلت حركاتهم وجمدت وردّ جموعهم الامير
شريك قهرا وزجرا بحد سيفه فتراجعت مواكب الروم بين
يديه الى الهروب وقالوا ان هذا البطل ما له من البشر مطيق ولا
يليق لاحد ان يقاتل هذا التبع الغضنفر فلله دره من بطل
الابطال وهازم الابطال حتى صار بعض اكابر الروم يدعون له
كما يدعون لانفسهم مما راوا من شجاعته وفروسيته وعلموا انهم
لا يقاومونه لا في ركوب الخيل ولا في ضرب السيف ولا في رمي
السهام وانما عمدتهم على رمي البندق والضربزانات والالات الكبار
فقال اكابرهم بعضهم لبعض ان القتال مع هؤلاء الابطال في الفاغ
البطال فتفهقرت الروم الى ورائهم قليلا زالوا حتى وصلوا الى
النيل لتسعيد وقصدوا انفضاض الحرب لهم في هذه الحالة
واذا بغبار قد ثار حتى سد الاقطار فوقفت الروم تنظر الخبر

ووقف الامير شربك ايضا هو ومن معه من الجراكسة ينظرون
وقد بقوا فئة قليلة ولكن كل واحد منهم مقوم بالوف ولولا
النار التي مع الروم لكانوا افنوهم عن اخرهم فلما قرب الغبار عليهم
من تحته خيل تركض الارض ركضا فقال لهم الامير شربك لا يخلو
هذا الجيش القادم من ان يكون السلطان طومانباى والا قيصر
عرب غزالة فجاؤا النا لنصرة عدونا قال فما تم الامير شربك
كلامه حتى قربت الخيل اليهم وتحققوهم واذا هم عرب غزاله يقدمهم
سلام بن خبير واخوه حماد وهم قاصدون الى العسكر الجراكسة
فلما نظروا الى الامير شربك بادروه بالسب والشتم فلما عاين
ذلك منهم عرف ان الامر صعب فاقتضى رأيه ان يظهر هم الهزيمة
حتى يتبعوه فاذا تبعوه ويعدوا عن الروم يرد عليهم وربما ان الروم
يرمون عليهم طلقا فيكون فيهم هلاكهم وكان الامر كذلك
فانه لما اظهر لهم الامير شربك الهزيمة طمعوا فيه وتبعوه فلما
بعدوا عن الروم رجع عليهم الامير شربك رجعة الاسد وقاتلهم
قتال من ايس من الحياة فما ثبتوا بين يديه ولا درجة واحدة
وقد ولوا منهزمين فانه ما بقي يقربه احد الا قتله فما ساعدهم
الا الهروب واما السلطان سليم فانه لما رأى العربان انهزمت على
الفور امر الرماة ان ترمي فقالت له الاعيان كيف نرمي على العرب
وقد جاؤا النصرتنا قال ارموا ودعوا كل من فرغ عمره يموت فرموا
عليهم طلقا فاصاب غالبهم فلما رأت العرب ما حل بهم من الروم
اغتاظت قلوبهم وقال بعضهم لبعض انظروا الى هؤلاء العلوج
نحن نقاتل عنهم وهم يرمون علينا بالنار ولا يرحمونا وقاد وا
لبعضهم من يرد السلامة يتبع الامير سلاما واخاه حماد الفرج سالم
وتبعته العربان وما سلم منهم الا طويل العمر فما مضى ساعة
حتى انعزلت عرب غزالة الى بعد نحو ميل ووقفوا ينظرون ما

يكون الامر بين الفريقين فلما عاين الامير شربك ذلك حسب
للحساب انه متى رجع الى قتال الروم تتغفاه العرب وتضايقه
وتعوقه عن مراده فامر الامير قانصوه كرت ان يكون فى مائة
فارس تحت السنجق بمن معه فما بينما وجد العرب حملوا يلقاهم
بالمائة فارس والعرب الوف وقد قتل منهم نحو الف او اكثر ثم
حمل الامير شربك والى جانبه الامير قانصوه العادلى والامير
ابرك والامير قلج والامير تمر والامير بردبك والامير يزيد
والامير دولتباى كاشف الجيزة والامير دولتباى كاشف الصعيد
وسيدى يحيى بن الامير ازبك صاحب بركة الازبكية فهم صف
واحد كل واحد منهم مقوم نفسه بجيش وحده فلله در هم من
فرسان افراد واتباعهم نحو الثلاثمائة تحطم على الوف مؤلفة
ورماة بالبندق وبالنار على سائر الات الحرب فلما رات الروم
الامير شربك قد رجع عليهم يريد الحرب صاروا يتعجبون منه غاية
العجب وقالوا لاشك ان هذا الرجل مجنون او معه احد من الجن
يساعده واما العاقل لا يلقى نفسه فى هذا الهلاك فامرهم
السلطان سليم بالرمى عليه فرموا طلقا حتى صار البندق عليه
كالمطر فلم يرجع عنهم وصار فى حملته حتى حطم عليهم وحطايده
فيهم فاصرت تنظر الا رؤسا طائرة وفرسانا تتساقط وعماوا فى
بعضهم كما تعمل النار فى الحطب وكان النهار قد ولى وغربت الشمس
والح لها عظيما السلطان سليم فى الحرب وامر لجناده ان يضايقوهم
وكان يريد اخذهم فى ذلك الوقت لان غالب عسكر الامير شربك
منهم من قتل ومنهم من هرب وما بقى معه الا الامراء الرؤس
القرانصة وبعض مماليكه فطمعت فيهم الروم غاية الطمع بذلوا
جهدهم فى الحرب فلله در هؤلاء الفرسان القلائل كيف صمطوا
هذا الحرب بانفسهم فلما عاين السلطان سليم الامر بخلاف ما امله

ودخل الليل ايس من اخذهم ونادى فى عسكره بالانفصال فما
كانت غير ساعة حتى رجع عسكر الروم تحت سنجقهم وصار الامير
شربك يشتمهم ويقول لهم بلسان تركى اذهبوا الى شوربتكم
يا علوج الروم يا كفرة يا فجرة وعسكر الروم ايضا تسبه وتقول
له ان شاء الله تعالى يا معرص نقطع رأس طومانباى ورأسك
ونخليهم تحت ارجلنا مثل رأس الكلب وننيك امك وامرأة غيرك
يا نصرانى يا ابن النصرانى يا كبشة حرامية يا عرصات يا ملاعين
يا خنازير اى شئ لكم نسبة بالسلطنة او الامارة يا كفرة يا مماليك
لو كان على رأسكم دولة كنتم تعملون سياسا عند سلطاننا الان
سلطاننا خير السلاطين وسلطان الخواقين ونحن غزاة الاسلام
وعزنا الله على الاعراب والاعجام كلنا مجاهدون مع الكفار
والفجار وما نحن مثلكم اشرارا ولا كفارا لعنة الله عليكم وعلى
من اتبعكم الى يوم القيمة فرجع الامير شربك لينظر محلا ينزل فيه هو
وجماعته فقال له الامير يحيى بن الامير ازبك صاحب بركة الازبكية
انزلوا على شاطئ النيل تجاه عدونا فقال الامير شربك هو راى
صواب غير انى عندى رأى اصوب منه وهو ان بالقرب منا بركة ماء
على الطريق فربما ان السلطان طومانباى يرسل لنا احدا او يأتى
هو بنفسه فلا ينظر الينا ولا يعرف فى اى جهة نزلنا فاستصوبوا
رأيه فما لبثوا غير ساعة الا وقد اقبل عليهم خمس فوارس من عند
السلطان طومانباى فاجتمعوا بالامير شربك واخبروه ان
السلطان نازل على دهشور وهو مشغول الفكرة عليكم وما جاء
عنكم خبر الا عند الغروب فهتم ان يأتى اليكم فرأى النهار قد ولى
وبلغه ايضا ان عرب غزالة قد حاربوكم مساعدة لعدوكم فساء
ذلك وانقبض خاطره وبقى متحيرا فى نفسه فقال الامير شربك
ليته قد جاءنا فى ذلك الوقت والله لو جادنا وقت الحرب وسعفنا

بالطعن لهم والضرب لاخذناهم عن آخرهم فان الروم ليس لهم عزم
ولا قوة الا رمي النار ولما بطل رمي النار ولم يبق الا السيف والعزم
م عاد لهم قدرة على ذلك ولو ان السلطان طومانباى صبر منه الرأى
كان نجاءنا على الفور ولكن الله اعلم ان دولتنا قد ولت وانقضت
فانى نظر ان الرأى والصواب ننساه ولا نعرفه حتى يفوت ويفقد
واوانه والرأى الخطأ نتبعه فهذا دليل على الزوال ولا شك ولكن
لا دافع لله فيما قضى والله تعالى يعلم اننا لم نقاتل فى حظ
انفسنا وانما قاتلنا عن انفسنا وحريمنا وعن ديارنا واموالنا
واولادنا فانه قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم والله تعالى يعلم انهم
باغون علينا وقد قال تعالى ثم بغى عليه لينصرنه الله وقد سلمنا
امرنا اليه تعالى وهو يفعل فى ملكه ما يريد ويحكم فى خلقه
ما يشاء ثم قال له القاصد ان السلطان امرنى ان ساعة وصولى
اليك لا تتأخر ساعة واحدة وتحصله على ضيعة وردان فانه
ينظركم هناك فعند ذلك امر الامير شربك بالرحيل ليلا وترك
الحرب واختار الهروب وقال من كان منا يتبعنا وقام من ساعته
وامر بالرحيل خوفا من سطوة سيف السلطان سليم فلما بلغ
مناه وتجمل عن دعواه قال له بعض الامراء فان تبعنا العدو فى
هذا الليل كيف نصنع فقال لهم وهل سمعتم ان الروم تقاتل
ليلا ابدا وما رأيتم لما ان دخل الليل كيف بيتوا ان عقلكم فلما
ساروا ومروا على الروم من بعيد لم يخرج اليهم احد وقال
السلطان سليم لا احد يتبعهم منا فانهم ربما فعلوا ذلك مكيدة
لكم وحيلة عليكم وفرح السلطان سليم بمرورهم لجهة البحر
المالح فلم يزال الامير شربك سائرا طول الليل الى ان طلع النهار
وهم فى الوراق واذا بالسلطان طومانباى نازل هناك فلما رأوه

على بعد امر السلطان بجميع من معه من العسكر ان يذهبوا الى ملاقاة
الامير شربك فارس الزمان فلاقته العسكر احسن ملتقى ودعوا
له وفرحوا بسلامته فلما قرب من السلطان اراد ان ينزل عن
فرسه فاقسم عليه السلطان طومانباى ان لا يترجل احد منهم
عن مركوبه فاشتغلوا قوله وسلموا عليه وهم على ظهور الخيل وسار
السلطان طومانباى والامير شربك عن يمينه والامير قيت الرجبى
عن يساره ومن ورائه الامير ابرك راس الجلبان والامير قانصوه
كرت فلما وصل السلطان الى اوطاقه ترجل عن جواده وترجل
الامير شربك وبقية الامراء والاجناد وجلس السلطان على الارض
من غير كرسى وكذلك الامير شربك وبقية الامراء على قدر مراتبهم
فقال السلطان للامير شربك اخبرنا يا اميرنا وقع لك من الروم
وبما فعلت فى محاربتهم فقال الامير شربك والله يا مولانا السلطان
وقع لنا معهم حرب يشيب الاطفال فى المهد يلين لعظمته الحجر
الجلمود وكنا نحن الظافرين عليهم والغالبين لهم وقد كسرناهم حتى
رميناهم البحر ولكن ما سلمنا من عرب غزالة فانهم هم الذين عاقونا
عن مطلبنا وصدونا عن مقصدنا ومنعونا عن غرضنا واى والله
العظيم رب زمزم والحطيم لو ثبت معى الاثنان الذان خرجت بهم
من عندك ما كنت رجعت عنهم وكنت قسمتهم قسمين قسم يقاتل
الروم وقسم يقاتل غزالة وما كنا بتنا الا فى مصرنا ولكن عاشتهم
الا هذه النار التى يرمون بها فما يشعر الانسان الا وهو مصروع
بها وما يعرف من اى جانب جاءته فان غالب عسكرنا لم يقتل منهم
احد بالسيف الا القليل ولكن هذا ما جرت به المقادير من الرب
القدير ونسأله اللطف والتدبير الاله الحكم واليه المصير ثم قال
الامير شربك والله يا مولانا السلطان لو حزمت امرك وضبطت
رأيك لكنت لما سرت انا والالفا فارس وقاتلت العدو وصبرت انت

وسرت وجئت بشئ يسير من خلفي وقاطعت على العدو ومن وراءهم
لكنا اخذناهم مواسطة من قبل ان تاتيهم بقية العساكر وعربان
غزالة وماكابتنا الا في مصرنا وكان انفصل الامر بيننا وبينهم
وارتاحت قلوبنا من هذا العنا فان السلطان سليما كان معه
نحو عشرة الاف وكانوا نقاوة عسكره واتباعهم نحو العشرين
الفا ولكن ماكنت انظرهم في الميدان الا كالبهائم ليس فيهم من
يسوق حصانه في حومة الميدان الا ان يكون چركسيا من من
الذين خانوا ابناء جنسهم وذهبوا اليه فالله يخود الخاش والله
اعلم ان دولتنا دعائمها قد مالت وايامها قد زالت واني ارى
ان الرأي الصواب نساه ولا نذكره حتى يفوت ويمضي حكمه وان
الرأي غير الصواب نتبعه ولو تعلق بالنجاح وهذا مما يدل على
الاضطراب والانقلاب فنعوذ بالله من العكس في الاسباب
التي توجب الى الذهاب من غير اياب ومن عظم مصيبة تحير فيها
عقول ذوي الالباب فقال له السلطان طومانباي دع عنك
الافكار والغم بما فات واعمل الرأي فيما هو آت فقال الامير قيت
الرجبي صدق السلطان فيما قال اضربوا لكم رأيا فيما تفعلون فان
العربان صارت كلها اعداء لنا وعونا لعدونا وليس فيهم من
يقاتل معنا ولا يكافح عنا لانه ما منهم احدا لا من قتلنا اما اباه
واما اخاه واما ابنه واما ابن عمه واما واحدا من اقاربه وذلك
لما كانوا يعصون علينا فهم الآن كل واحد منهم يطالبنا بثاره
القديم واما عدونا فانه قد جاءهم جديدا وليس بينه وبينهم
شئ من العداوة ولا نالهم منه الا الخير فانه تذهب اليه اكابرهم
فيعطيهم ويرضيهم ويعلق آمالهم بجزيل المطامع ويحلف لهم
انه لا يؤذيهم ولا يقتل منهم احدا ولا يأخذ منهم خراجا وانما
يأخذ منهم العشر ويحكم بينهم بالعدل ولا سيما معه هذا

الشيطان ان الخبيثان خير بك والغزالى وهما يراسلان شيوخ العربان
ويقولان لهم هذا ملك عادل مسلم ابن مسلم وسلطان ابن سلطان
الى سابع جد ويحب الخير والانصاف ويكره الظلم والاسراف
ويميلان قلوب الناس اليه ويعطفونهم عليه ويسميانه بالملك
العادل ويشكران لكل احد عاقل وجاهل وبعد هذا فما بقى لكم من
الراى الا ان ترسلوا قاصد القبيلة غزالة التى هى اشد القبائل
علينا وتوعدوهم بكل خير فلعل ان يميلوا الينا ويطيعونا فان
حصل ذلك كان خيرا وان ابوا فالاستعانة بالله خير لنا من كل
احد وغاية الامر الموت فانه امر لابد منه فعند ذلك امر السلطان
طوما نباى بكتابة كتاب الى عرب غزالة فاول ما بدا فيه بشيخهم حماد
ابن خبير ويخوفهم من الله تعالى وعاقبة المكر والبغى وحلف لهم
ان اطاعوه ودخلوا فى طاعته لبقابلنهم باحسن مقابلة وان
لم يقبلوا ذلك يكفوا عن قتالنا ولا يعاضدونا فى قتال عدونا
فانهم كانوا يجتمعون على بعد من الحرب ويرسلون من ينظر لهم الخبر
فلما تقع الكسرة على الرومى يحملون برمحة واحدة على الجراكسة من
خلف ظهرهم فيضيقون علينا من هزيمة عدونا فلما ترى الجراكسة
الامر قد جاءهم من خلفهم يرجعون عليهم ليكفوهم عن انفسهم
ويردون عليهم فتصير الجراكسة فى الوسط فبهذه الوسيلة تغلب
الجراكسة غاية الغلبة فلما وصل كتاب السلطان طوما نباى الى
حماد بن خبير مع رجل يسمى محمد شيخ البكارية قراه حماد بن
خبير وعرف مضمونه واعطاه لاخيه سلام فقراه الاخر وعرف
مضمونه قال سلام لمحمد شيخ البكارية انت يا محمد ما تعرف ما جرى
بيننا وبين الجراكسة وما قتلوا منا وكم يعطونا الامان ثم يغدرون
فقال له محمد انما كان يفعل ذلك السلطان الغورى واما هذا
الرجل طوما نباى فانه رجل صالح وفارس فالح وما سمعنا عنه

لاحد سوءا ابدا وانا ضامن لك عهدته فانه رجل صادق في
قوله وليس هو كالغوري فقال له سلام واخوه حتى ننظر
ان كانت العرب تطيعنا او لا ثم نادى في جميع عرب غزة ان
تجتمع الاعيان منهم فاجتمعوا كلهم فقرأ عليهم كتاب السلطان
طومانباى فلما سمعوا قاموا كلهم قومة واحدة وقالوا لا سمع له
ولا طاعة ولا بيننا وبينه الا السيف فقال محمد شيخ البكارية
يا وجوه العرب اما ما قلتم عن السلطان الغوري فانه كلام صحيح
وقد نظرتم كيف اخذه الله تعالى واما هذا الرجل طومانباى
فهل سمعتم عنه شيئا من الظلم والبغي قديما او حديثا فقالوا
لا ما سمعنا عنه سوءا ابدا لا في زمن الغوري ولا في هذا الآن
وانما هذه الطائفة دولتهم قد زالت وولت واوقاتهم مالت
وايامها ولت واعزاؤها ذلت ولو قمنا معه ونصرناه لا يفيد
ذلك بعد ان ولت دولته وان تركنا نصرة السلطان سليم
واعتزلنا لا نسلم من عتبه علينا فيما بعد ذلك بل ولا نأمن على
انفسنا منه فانه صاحب لباس شديد والاولى ان نجعل لنا عنده
يدا نأمن بها على انفسنا فيما بعد وبعد ذلك لا تطل علينا في الكلام
واقتصر في الجواب فما بقي لك معنا كلام والسلام فلما ايس
منهم انثنى راجعا الى السلطان طومانباى واخبره بذلك فقال
لهم الامير شريك الآن قد بان لكم صحة قولي فقالت جميع الامراء
والله ان رأيك في جميع الامور هو الصواب من يوم الريدانية
وانت تقول لا تدفنوا المدافع في الرمل وما تبردي الغزالي يقول
الصواب دفنها حتى لا ينظرهم احد وانما كان ذلك منه مكرا
وعنادا فلا لقاه الله خيرا فأمنت جميع الامراء على دعائه عليه
وكان كذلك فلم يلق نصرا الى ان قتل اسوء القتلات وسيأتي
خبر قتله فيما بعد ان شاء الله تعالى فقال لهم السلطان طومانباى

يا امراء يا اخوان الراى عندى ان نتوكل على الله ربنا سبحانه وتعالى
فان الامر بيده وما يضرنا اذا متنا شهداء فان الله تعالى يعلم انهم
قد بغوا علينا وقد قال تبارك وتعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين
فما بقى لنا الا التسليم لله فى الامور كلها ونقاتل الى ان نقتل والسلام
واما حريمنا وذريتنا فالذى خلقهم هو ارحم بهم منا ثم قال يا قوم
نحن اقمناها هنا يومنا وقد ثقلنا على اهل هذه القرية من جهة الاكل
والعليق والراى ان نرحل الى قريتنا ام دينار ثم امر السلطان بالرحيل
وقام من وقته وساعته فقامت جميع الامراء الذين بقوا معه من
الاعيان رؤسهم الامير شريك والامير قانصوه العادلى والامير
قانصوه كرت والامير تمر نائب الاسكندرية والامير دولتباى
والامير ابرك رأس الجبان وباقى الامراء الذين تقدم ذكرهم فما كانت
غير ساعة حتى وصلوا ام دينار وتلقاهم اهلها احسن ملتقى وباتوا
تلك الليلة فلما اصبح الصباح قدم عليهم خيال من اهل تلك البلاد وهو
يصيح بهم الخيل قد اخذتكم فما استتم كلامه حتى اظلم البر من شدة
الغبار وكثرة الخيل فلما لاح لهم ذلك الغبار ركبوا وخرجوا الى
الحرب والقتال فالتقوا من غير ترتيب لليمين والشمال والتقى الجمعان
فوقع بينهم من الحرب ما يعجز عنه الوصف فلله در الامير شريك
وقانصوه العادلى وما فعلوا هذا اليوم مع هذه الجموع واما الامير
قيت الرجبى فانه تصادم مع قانبردى الغزالى فى حومة الميدان
فاقتتلا قتالا اشتد بلاحتى تحيرت النظار فيما وقع بينهما من الحرب
ثم تقارب بعضهما من بعض حتى تقابضا بالاطراق فلم يقدر قانبردى
الغزالى ان يصرع قيت الرجبى من سرجه مع انه رجل كبير السن فى عشرة
التسعين وقد قعد فى الحبس محبوسا سنين ومع ذلك لم يتغير
له لون فعلم الغزالى من نفسه الخسة ودخل عليه الجبن وقال

في نفسه اذا كان هذا فعل هذا الشيخ الهرم فكيف لو وقعت مع شريك
ثم انثنى شجع نفسه واطلق الامير قيت الرجبي ثم بعد عنه واستعد
عليه بطعنة بقنطاريته من وراء ظهره قلبه عن جواده واراد
ان ينزل ويقطع رأسه واذا بفارس صرخ عليه صرخة افلجه
وطعنه طعنة اسرع من خروج السهم من كبد القوس فوقعت
في خاصرته قلبته عن جواده وانثنى ذلك الفارس راجعا الى الحرب
والقتال فالتهى الغزالي بنفسه عن الامير قيت الرجبي فبادر الامير
قيت الرجبي الى حصانه فركبه وركس خلف ذلك الفارس الذي
كشف عنه فاذا به الامير شريك فدعى له من صميم قلبه واراد ان
يكون معه في القلب وما زال يشق الصفوف ويغرق الالوف حتى
عجز وكل وبطل جواده وكلت سواعده فلما علم من جواده العجز التفت
وانثنى راجعا حتى خرج من المعركة فوجد خيلا اقبلت من كبد الكبر
لا يحيط بها الحصر واذا بهم عرب غزالة كان رسم لهم السلطان سليم
انهم يجتمعون مع العسكر هناك ويقاتلون الجراكسة فصادفوه على
هذه الصفة وقد بطل حصانه فرشقوه بالحراب فمنع عنه اللبس
فصادفه منهم سهم دخل في فؤاده فوقع على وجه التراب فنزلت عليه
النهابة فعروه واخذوا ما كان عليه وقتلوه هذا ما كان من امر قيت الرجبي
واما الغزالي فان مماليكه سارعوا اليه لما رماه الامير شريك وحملوه
الى وراء حتى ادخلوه في الوطاق واسقوه السكر ووجد واجرحه
سليما واما الامير شريك فلا زال يقاتل قتال الجبابرة والغزاة
حتى كل من تحته الجواد وتضاعف على الجراكسة المدد والاعداد وفاز
بحر الروم حتى ملأ السهل والواد وقصرت الطائفة الجراكسة لتقصيرهم
لانه كان هو طنبها والعماد وكثر القتل في الجراكسة وزاد وطلعت
عليهم العربان التي في تلك البلاد وصاحت عليهم المدافع والبنادق
وملأت الفؤاد وفي كل رمحي كانت تتزلزل تلك البلاد فحضرت صفوف

الروم كالبحر الزاخر وقيت بالحجارة والرصاص نازلة كالامطار وصار المدافع صائحة والحديد مع الاجساد والرؤس طائرة قال الراوى كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع خلى منهم مائتين فى الشام وجاء معه بمصر ستمائة منهم مائة وخمسون مدفعا كبيرة والبقية ضربزانات كان طول كل واحدة خمسة وعشرين شبرا وكان يسحب كل واحد من الصغار اربعة رؤس خيل واما الكبار فكان كل واحد يسحبه ثلاثون او اربعون من الخيل وكان كل واحد منها مكسيا بجوخ احمر ولما دخل مصر كان اول المدافع فى اليدانية وآخرهم فى الخانقاه وكان عسكره كالنمل فى الوادى وكان على يمينه خيالة اكبوت كل واحد فى يده مزراق وفيهم بيارق حمر نحو عشرين وخمس وعشرين الفا ومثل ذلك على شماله كلهم خيالة بيارق مهفرة قد لبسوا من البكنجرية نحو عشرين صفا كل صف لا يعد وقدامه صفوف بالاعلام والطبل خانات والونزاء والباشوات وكل من جابوه من البحر اكبوت يقطعون قدامه وان كان رجلا كبيرا او امير اشيعوه مكتفا الى السلطان سليم ويقطعون رأسه قدامه وهو واقف فوق الحصان وقدامه مكشوف والشعاة قدامه بطاشات من ذهب نحو اربعمائة وفرقة فى رؤسهم الريش الابيض مشاة وفى ايديهم سهام يسمونها صولاق كلهم كانوا يقفون قدامه مربوطين الايدى وهم ينظرون الى الامرجن بادب وفى رواية سبعة اعلام باسماء اجداده مكتوب عليها اسماؤهم بالذهب واربعة وعشرون علما باسم السلطان سليم وكان مكتوب فى بعضها انا فتحنا لك فتحا مبينا وفى بعضها نصر من الله وفتح قريب وكان معه علم ابيض اكبر من سائرها سألت عنه فقالوا علم الاسلام ونرجع الى سياق الحديث وهم اى الجراكسة فى ذلك الحرب بشديد والقتل المزيد اذ لاح لهم غبار حتى سد الاقطار فتنحى كل فريق عن الآخر حتى يروا

ما تحت ذلك الغبار فما مكثوا غير ساعة حتى وصل اولهم وهم
يتصايحون بالقيس نحن فرسان غزالة ذو الكفوف والكفالة اليوم
ترون يا بنو چركس الموت الاحمر ونذوقون من سيوفنا الوبال
الاكبر وينفى جمعكم وتفرغ كثرتكم ويقطع اصلكم وفرعكم وكان
المتكلم بهذا الكلام اميرهم وكبيرهم سلام بن خبير واخاه حماد وهما
كبراء القوم فقصد سلام بن خبير الامير قانصوه كرت فوقع بينهما
اندب من الحرب يحير الناظرين وحمل كل واحد منهما على صاحبه وا
فنونه وعجائبه وحملت فرسان غزالة على الجراكسة حملة واحدة
وحملت الروم من الجانب الاخر واخذوهم مواسطة فلا تسأل عما
قاسوا من الحرب والطعن والضرب فى ذلك اليوم فضايق سلام
بن خبير الامير قانصوه كرت حتى رماه البحر وما بقى معه سوى عشرين نفرا
من مماليكه والذين مع سلام نحو الالف او اكثر ولما وقع الامير قانصوه
كرت فى البحر ثقل على الفرس من لبس الحديد وقد كان الفرس قد كل من
الجرى فلم يقدر ان يعدى الى ذلك البر فغرق هو وفرسه وغالب
مماليكه وذهب تحت المياه وما سلم منهم الا القليل فكان رحمه
الله حسن السيرة والاخلاق وكان اذا رآه الانسان يقول تبارك
الخلاق واما سلام بن خبير فانه رجع على الجراكسة مرجعة منكرة
وهو ينادى يا لأخذ الثار فوجد شريك على ما هو عليه من الحرب الشديد
فلله دره من فارس الاعداء فارس فى مأتى فارس يقاتل الوفا
فوقعت الجراكسة فى كفة النقصان فبينما هم كذلك وفى هذه
الحالة واذا بعجاج قد ارتفع وارتفع الغبار وثار من ناحية ارمنى
وبردان وهم يصيحون بالنصرة لآل عثمان اليوم يا بنى چركس نذيقكم
الهوان ويحل بكم النقصان فنظروا اليهم واذا هم قانبرد ك
الغزالى ومن معه قد جاؤهم من جهة اخرى فبقيت الجراكسة
لا يعرفون من يقاتلون والى اين يذهبون قال صاحب الحديث

ان القوم

ان القوم لما وصلوا ضربوا لهم ميدانا ثم ان الامير قانبرك الغزالى
المارقى من ابنا مجنسه برز الى حومة الميدان ونادى يا على صوته
يا آل جركس نظرتم قوتكم وشوكتكم ونظرتم ما تكون دولة آل
عثمان ودولتكم اين شجعانكم اين فرسانكم اين سلطانكم عرفتم
مقداركم وندامتكم وانا احد عبيد لحضرة السلطان سليم الملك
العظيم صاحب القوة والجيش الكاسر منتشر العساكر قاصر الغياصرة
كاسر الاكاسرة قاتل القراعنة والجبابرة اما معكم احد من الشجعان
يبرز الى الميدان فقال السلطان طومانباى للخاصكى الذى بين يديه
ابرز اليه فبرز من وقته ولما صار فى ساحة الميدان قال له ذلك
الفارس الذى هو قانبردى الغزالى يا خاصكى ادرك روحك مهيقة
عليك حتى جئت بها الى الهلاك استغنم السلامة وارجع الى اهلك
فقال له الخاصكى وانت من اين يا انجس العرب حتى تهتنى بهذا الكلام
فان قانبردى الغزالى لما جاء فى هذه المرة لبس لبس العرب وتكلم
بكلامهم وتلثم حتى لا يعرف فما ظنه الخاصكى الا بدويا من عرب
غزالة ثم ان الخاصكى قام فى سرجه وطعن طعنة بالمزراق
فخرج من يده كالبرق الخاطف فلما نظرها قانبردى الغزالى جاءت
قاصدة صدره انحرف لها فى ظهر الجواد وخطفها من الهواء ثم صاح
على الخاصكى خذ حربتك فانك مقتول بها ثم هزها وطعنه بها فقفطس
عنها الخاصكى فصبر عليه حتى استوى على سرجه وعاجله بها قبل ان
ينظرها فوقعت فى نحره فوقع على الارض طريحا ثم ان قانبردى جاء
فى الميدان وطلب اليرانز كل ذلك ولم يعرفوه لانه اكسة وما يظنوه
الا بدويا من الفرسان المجبورة فانهم لو عرفوه لرموا بانفسهم عليه
جميعا وقطعوه بسيوفهم فانه اول من خانهم واغرى عليهم عدائهم
هو وخيربك فانه لولا هذان الاثنان ما كان لسلطان سليم يجوز
ويدخل ارض مصر مع انه كان لا يتنزل عليه بعد اخذه ارض مصر ان

يعمل باشا من جانبه احدا من الجراكسة ولا يعطى لاحد ذلك من امراء الجراكسة
لتقدم طاعته فانه كان له عزم وبأس وعظمة وتكبر وتجبر وكان
قهارا سفاكا للدماء ما كان يرحم فى محل السياسة ولا يشفق
لا على كبير ولا على صغير وكانت همته اذا عاش ان يأخذ الربع
المسكون من ايدى الملوك المتنوعة ويصير هو سلطانا على جميعهم
وكان سبب مجيئه الى مصر كثرة العناد الذى كان حصل من
الامراء وقتل الاولاقية وعدم طاعته على السكة والخطبة باسمه
وكان محركه خير بك ولكن لكل شئ آفة من جنسه فان تيمورلنك
لما خرج على الملك الناصر فرج بن برقوق اخرب حلب والشام واطلق
فيهما النار بعد ان نهب جميع ما فيهما ولا قدر ان يتجون ويدخل
مصر وفى الحقيقة ان السلطان سليم زاد على تيمورلنك بهذه
المدافع والبنادق والضربزانات التى اذا سيبوا منها طلقة تزلزل
الدنيا وترعب القلوب ولكن اذا اراد الله بامر هيأ اسبابه ورجع
الى سياق الحديث فلا زال قانبردى الغزالى تبرز اليه الفرسان
واحدا بعد واحد حتى قتل منهم عشرة فهابته الفرسان وقالوا
قد تعجبنا من هذا الانسان فما عرفنا هل هو من الانس ام من الجن
فقال لهم قانبردى يا آل چركس اريحوا انفسكم وابرزوا الى
سلطانكم طوما نباى اما ان يقتلنى واما ان اقتله فلما سمع السلطان
كلامه تعجب منه وقال الا تنظرون الى قوة هذا الفارس واقدامه
وشجاعته وكثرة كلامه فهل فيكم من احد يكفينى شره فقال
قلج انا يا مولانا السلطان فقال ابرز اليه وخذ حذرك فانى اراه
سريع الحركات ولا يخلو ان يكون بطلا من الابطال المخبورة ولولا
ان فرسى قد بطل لبرزت اليه ولا اظن ان فيكم احدا يقاس به فى
فروسيته فقال له قلج انا اكفيك شره بعناية الله تعالى ثم برز اليه
قلج وكان من الامراء الاربعين وقد كان تعين له ان يصير اميرا مائة

مقدم الف موضع الامير كرتباى الوالى ولو كان الامير شربك حاضرا
فى ذلك الوقت ما تركه يبرز الى هذا الفارس فانه كان من شدة
محبته له يفديه بنفسه فى كل امر صعب وفى الحقيقة ان الجراكسة
لو عرفوا ان هذا الفارس هو قانبردى الغزالى ما برز اليه الا
السلطان طومانباى بنفسه او الامير شربك فانهما يرجحان عليه
فى الفروسية ثم نزل اليه الامير قلج وحمل عليه فوقع بينهم من الحرب
اندك حتى تعجبت الناس من هذين الفارسين ثم ان الامير قلج ضرب
قانبردى ضربة على رأسه بالسيف قطعت الخودة ونزلت الى
الرفادة والسناتير فجرحته جرحا خفيفا فضرب قانبردى الغزالى
ضربة الى يمين الامير قلج فابراها كما تبرى القلم فوقعت الى الارض
هى والسيف فبهت الامير قلج واندهش وتخيل فهجم عليه قانبردى
وضربه اطاح رأسه عن جسده فلما عاينت الجراكسة ذلك عسر
عليهم قتل الامير قلج وقالوا ما يقايس هذا البطل الا الامير شربك
او السلطان طومانباى ثم ان هذا الفارس جال فى الميدان يمينا
وشمالا وصار يعجب بنفسه ويتمايل فى ظهر فرسه وصار يشتم
الجراكسة بالعربى ويقول لهم يا لئام غير كرام من يقاوم السلطان
سليما يقاوى سلطانا او يثبت بين يديه يا كفار يا فجار وافحش
فى كلامه حتى افحم قلوبهم وكل ذلك ولم يعرفوا انه قانبردى الغزالى
وقال لهم اذا كان سلطانكم يزعم انه فارس او يقاوم الفرسان
فليبرز الى حومة الميدان وينظر نفسه اذا كان يرجح او يقع فى كفة
الخسران فقال له السلطان طومانباى ها أنت جئتنا هات ما عندك
من فروسيتك وشجاعتك ولا تبق ممكنا فان السلطان طومانباى
قد تفرس فى القتال وصار القتال سجيته وصنعته فما بقى يتكلف
لشئ ثم ان السلطان طومانباى قال له انظر يا اخا العرب لا اقاتلك
ولا احاربك حتى اتكلم معك كلاما لعل ان يكون فيه صلاح لك فقال

له قل ما عندك فقال له السلطان طومانباى اريد منك ان تخبرنى
من انت اولا وما الذى حملك على قتل فرسانى من غير اذية سبقت
منى اليك فانى والله ما ادركت نفسى ولا اعلم انى بغيت على احد
ولا ظلمت احدا ولا افتريت على احد وما امر سلطنتى هذه والله ثم
والله لم يكن فى غرضى ولا خاطرى وانما الامير علان والامير كرتباى
الوالى والامير شرهك ابرموا على وقالوا لا نرضى لهذا الامر الا انت
فعلمت انه امر ابتلانى الله تعالى به واما هذا السلطان سليم الذى تدعى
انه ملك عادل وانه لا يحب الجور كيف يجوز له ان يتعدى علينا
ويرمى علينا بالنار والمدافع والاحجار ويقتل رجالنا ويسبى نساءنا
واولادنا ونحن مسلمون مؤمنون موحدون قائمون بحماية الدين
فلما ان بغى علينا وتعدى حده وجب علينا ان نقاتل عن انفسنا واولادنا
وحريمنا واموالنا وفى ذلك اذن من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى
فى كتابه العزيز وهو اصدق القائلين فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم الاية ونحن فى الزمن الاول قد رنا عليهم مرارا
وعفونا عنهم وهم الآن قدروا فما عفوا وملكوا فما رحموا وفعلوا فينا
ما لم يفعلوه فى عبدة الاصنام والصلبان وهم جيرانهم ومحاذونهم
واما نحن فانا مسلمون موحدون فانى سألتك بالله تعالى وبمحمد رسول
صلى الله عليه وسلم ان تكون معنا وتكون نحن وانت اخوانا من الآن
او تتركنا لانفسنا ولا علينا ونحن نستعين بالله تعالى عليهم وتكفينا شرهم
وان اخترت الحرب والقتال فانى لا اقاتلك الا ان عرفتنى بنفسك فانك
قد قلت لا تريد الا انا فها انا قد جئتك بنفسى فعرفنى بنفسك واكشف
لثامك فانى متحير فيك واشكل على امرك فلا انت بدوى تعرف ولا جركسى
تعرف وكلامك لا يشابه كلام الروم ولا كلام العرب وانى اقسم عليك بالله الذى
خلقنى وخلقك الا ما اخبرتنى من انت فكشف له اللثام فاذا هو
قانبردى الغزالى فلما رآه السلطان طومانباى غاب صوابه من شدة

القهر وقال له يا ابن الف قرنان ونسل اولاد الزنا الخسام يا خبيث
يا ملعون يا ابن الملعون يا خائن يا ابن الخائن ولهذا تبعت الخوان
قان الذى ذهبت اليه وصرت من حزبه شهرت الخيانة فان اسمه
سليم خان ومن خان لا كان وانت ايضا قد عاهدتنا وحنثتنا وعاشرتنا
واغريت علينا اعداءنا فيا لله العجب كيف طابت نفسك الخبيثة
بذلك ولكن صدق الله العظيم الخبيثات للخبيثين والآية ثم ان السلطان
طومانباى حمل عليه حملة منكرة فما ثبت بين يديه ٢ او قد طعنه
السلطان طومانباى طعنة بقنطاريته قلبه عن ظهر فرسه
ثم وضع القنطاريته على صدره واراد ان يقتله بها فقال له انى
سائلك بالله تعالى وتوسلت اليك برسول الله صلى الله عليه
وسلم وبسر شيخك سيدى ابى السعود الجارحى ان تجعلنى عتيقك
فى هذا اليوم فلما سمع السلطان طومانباى ذلك القسم رق
قلبه له وذلك من كمال ايمانه فقال له على شرط انك تكفينا شر
هذا العدو الذى جئت به الينا وبشرط انك لا تستحب فى وجه احد
من آل جركس سيفا فحلف له الغزالى على ذلك وقد شدد عليه فى
الايمان فعند ذلك رفع السلطان القنطاريته عن صدره وقال له
قم يا خبيث فقام الغزالى وهو ينفض التراب عن رأسه وجاء الى محل
السلطان وقبلها فى الركاب ودعا له وهو يكاد ان يبكى مما فعل
وسار الى فرسه وركبها وقال لجماعته ارجعوا عن القتال فقد حلفت
له انى لا اقاتله وانى واف له بالايمان ولكن اخاف اذا رجعت اليه
يقتلنى وانى راجع من هنا الى محل آخر اقيم الحرب فيه واغير الملبوس الذى
رأنى لابسه واما طومانباى فانى لم ار له اثر ولته قد زالت لانه
لو قتلنى لا كنفى شره ولكنه قدر على وعفى عنى الى ان وصلت العساكر
الى العظم ثم انه قصد نحو سنجق السلطان سليم وفى هذه الساعة
وصلت العساكر التى خلاها السلطان سليم مع الوزير يونس باشا

في مصر لما عدى الى بر الجيزة لقتال الامير شربك وطومانباى
وكان السبب في قدومهم ارسال مكاتيبه الى يونس باشا في الليلة
الماضية يأمره بان يعدى الى بر انبابه بجميع من معه من العساكر
ولما وصلت هذه العساكر في تلك الساعة الى السلطان سليم اشتد ظهره
وقويت نفسه واما السلطان طومانباى فانه لما عفى عن الغزالي
ورجع الى سنجقه لم يرتحه الاجماعة قلائل من مماليكه وبقية
الامراء تشتتوا في الحرب والطعن والضرب ولكن الكثرة غلبت
الشجاعة فلله در هم من فئة قليلة تقاتل هذه الجموع والعساكر التي
لم يعلم لها اول من آخر فاندهشت عقولهم وتحيروا في امرهم فقال
لهم الامير شربك والامير قانصوه العادلي يا آل جركس اثبتوا فان
القتال ليس بكثرة العدد والمدد وانما هو بزيادة الصبر والجلد
واقرؤا قوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله
والله مع الصابرين وها انا امامكم وفريد عصره السلطان طومانباى
نصره الله تعالى يريد عنكم فدونكم والحرب ما دمنا في قيد الحياة فلا
تخافوا من احد ولا يغركم كثرتهم فاني وعزة الله تعالى لولا هذه
النار التي معهم لقاتلتهم بنفسي ولا اكترثت منهم احدا فاني عارف
فيهم فارسا بعد فارس وفقره ليس لهم بأس لا بهذه المدافع والبندقيات
وذلك لا يفيد منهم شيئا لان كل انسان جعل الله له عمرا لا يزيد
بهروبه ولا بثباته ينقص وقال العارفون الشجاعة صبر ساعة
واذا هم بغبار قد ثار من جهة الميمنة فنظروا اليه واذا بصياخ الخرو غباره
قد ظهر من جهة الميسرة ثم بصياخ وغبار قد ظهر من خلف اظهرهم فتحيرت الجراكسة
في انفسهم اين يذهبون وسبب ذلك ان قانبردى الغزالي لما رجع منهزما
من السلطان طومانباى الى السلطان سليم واخبره بانه رصد منهم
وقتل منهم عشرة فوارس ولكن شربك وطومانباى وقانصوه
العادلي جمعوني عن مرادي فاخترت الرجوع اليك بشئ اريد انا فعله

ففي ساعته نشيل الجراكسة فقال له السلطان سليم وما هو يا ابا منصور قال تأمر اياس باشا اغاة اليكجرية يذهب من جهة وأنا اذهب بمن معي من جهة اخرى وتأمر يونس باشا ان يأتي من جهة بمن معه من العساكر وانت بمن معك من جهة اخرى ونضبط عليهم فانهم فئة قليلة ما يثبتون معنا ولا ساعة واحدة فقال السلطان سليم نعم الرأي ثم امرهما اشار به قانبردي الغزالي فما مضى غير ساعة حتى تفرقوا كما تقدم ثم احاطوا بالجراكسة من كل جهة وجاءت عرب غزالة من جهة اخرى والسلطان طومانباي والامير شربك والامير قانصوه والامير يحيى بن شربك والامير ابرك راس الجلبان والامير دولتباي والامير رزمان التاسف انظر ما فعل هؤلاء الفرسان الليلة في هذه الالوف المؤلفة والجموع التي لا تحصى من الكثرة من كل جنس فصارت هذه الامراء المذكورون يتحدون الركاب في الركاب لا يفارق بعضهم بعضا وبقية العساكر خلف ظهرهم وهم دائرون في وسط هذه العساكر لا يدرون اين يذهبون ولا من يقاتلون وما قتل من الجراكسة احد بالسيف والعود وانما كان القتل فيهم بالبندق واما الامراء المذكورون لم يخرج منهم احد وفي هذا اليوم قتل من الجراكسة اكثر من كل يوم بهذه العملة التي عملها قانبردي الغزالي وغالب القتل ما كان الا بالبندق والضربزانات والمدافع النيران على سائر الصنوف وتم النهار ونادى منادي الحرب بالانفصال واقروا على هذا الحال وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ورجعوا وهم لا يعرف بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول ذلك اليوم وليس الخبر كالعيان قال الراوي فنزل السلطان سليم على قبر تومان وبات ونزل السلطان طومانباي على قبر تمراسفل منها على شاطئ النيل السعيد بحيث ان كل عسكر منهم ينظر الاخر رأي العين وباتوا تلك الليلة في اسوء الاحوال من شدة ما حصل لهم من القتال ثم جلسوا بعد ما اكلوا

الطعام الذى جاء لهم من تلك القرية التى باتوا بها واخذوا
فى ضرب الرأى فقال لهم السلطان طوما نباى والله يا اخوانى
ما اظن الا ان دولتنا قد زالت فانى ارى اننا كلما فعلنا شيئا
نريد ان يكون فيه المصلحة فما يكون امرنا فيه الا بضد ما نريد
وارى ان اعداءنا امرهم يزيد فكم قتلنا منهم من ألوف ومع ذلك
أرى الامر كما له يزيد وان الغالب على ظنى نزوال ملكنا وان الظفر
لعدونا فانظروا وقول القائل

ان اقبل السعد قم قائما واقتبس من الثلج ان شئت نارا
وان رقد السعد فارقد له فما الثلج فى العكس يوما خسارا

ثم ان السلطان طوما نباى قال لهم يا قوم ان هذه الواقعة اضرت
بنا وهدمت قوتنا بفقد الامير قانصوه كرت فانه كان ركنا ولا
يقى لنا رأى الا ان نذهب الى حسن بن مرعى وابن عمه سقر شيوخ عرب
محارب فانى قد وليتهم عليهم واطلقت حسن بن مرعى من الحبس بعد
ان كان المرحوم السلطان الغورى كتب على قيده مخلد وقد اطلقنا
لما ان صار الامر لى واخذت عليه العهود والمواثيق والايمان المغلظة
انه يكون معى ظاهرا وباطنا ويقوم معى بالقلب والقالب اذا احتاج
الامر لذلك وما ارى احسن من سيرنا اليه ونكون نحن وهو على قلب
رجل واحد ثم بعد ذلك ندبر امرنا وننظر ما يكون من جانب الله تعالى
وهو يعلم انهم باغون علينا ثم انه امر بالرحيل من وقته وكان
ذلك الوقت نصف الليل فقال له بعضهم فان قام العدو علينا فى
هذا الليل فكيف يكون الامر فقال له السلطان هل رأيت او سمعت
ان الروم تقاتل ليلا فهذا الامر لا يكون وانما المعتمد هو لاء القوم على
النار والرماة مشاة لا يقدرون على المشى بالليل فما كانت الا ساعة
حتى ركبوا وساروا من وقتهم وهم مستيقظون لانفسهم حتى
وصلوا الى مدينة سخا وكان حسن بن مرعى وابن عمه سقر قاطنين بها وعرفهم

منتشرين بها الى سنهور فنظروا الى خيل السلطان طوما نباي وقد
اقبلت فبادروا الى خيلهم فركبت الفرسان وسادات القبيلة وركب
الامير حسن بن مرعي امير العرب والحاكم على تلك البلاد حتى قارب
عسكر السلطان فترجل عن جواده هو واولاد عمه وعشيرته ثم
قدم عليه السلطان وقدم هو على السلطان فقبل يديه وطلب
من السلطان ان ينزل الى منزله للضيافة فقال له السلطان
ما نحن فاضنون للضيافة ولا لغيرها والعدو في اثرنا وقامت
علينا العربان من عرب غزالة لا لقاهم الله خير اخصوصا سلام بن
حفير لا سلمه الله تعالى وما جئت لك الا لتنظر لنا محلا نختمي فيه
ثم ندبر امرنا فيما فيه الصلاح لنا فقال له الامير حسن اذا كان الامر
كذلك انا اعرف لكم محلا يقال له الغابة وهو وادي كبير واسع
وافر المياه اذا تحصن فيه القوم ووقف على بابه رجل واحد
منع من يدخل ولو كانوا الوفا من الناس فان هذا الوادي لا يمكن
ان يدخله غير فارس ولا يمكن ان يدخل منه اثنان متسايران
لانه ضيق جدا ومن الجانبين ارض رباوسبخة كل من نزل بقدمه
وداس عليها صاخت به وهذا الوادي هو قلعتنا اذا قصدنا احد
من اعدائنا وعلمنا انه لا قدرة لنا عليه نذهب الى هذا الوادي
فنامن على انفسنا منه فما لكم يا مولانا السلطان اعدل منه ولا
احسن منه فقال له السلطان اركب وسر بنا على بركة الله اليه لعل
الله ان يحفظنا به ونتحصن وما يكون الا ما يريده الله فساروا من
وقتهم حتى وصلوا الى فم الوادي الذي يدخل منه اليه فلما رآه السلطان
وقف وغطس قلبه وانقبض خاطره وحس بقلبه انه لا يحصل له
من هذا الوادي خيرا بدا فحبس فرسه ووقف مكانه وتحير في
امره والتفت الى امراء دولته وقال لهم الى مخبركم بمنام رأيته من
مدة يومين رأيت نفسي اني في هذا الوادي بعينه وانا على

جانب البحر المالح وقد قامت فرتينة عظيمة واظلمت الدنيا ولا يبقى
احد مع احد واذا بخمس كلاب سود قد احاطت بي وارادت ان
تفترسني فجذبت سيفي واردت ان اضربهم به واذا به قد طار
من يدي وسقطت عمامتي ودقت الكلاب علي وقبضوف
فصرت بينهم كقطعة لحم كل واحد ينتشني من ناحية فأيست
من نفسي فانتبهت مرعوبا وقد عمني العرق فلما سمعوا منه الامراء
هذا المنام تشوشت خواطرهم وقال بعضهم ان هذه الرؤيا
لا تدل على خير وان هذا مما يدل ان الظفر لعدونا والنصرة له علينا
فان وقوع العمامة يدل على زوال المنصب واما قيام البحر فاتر
قيام هذا السلطان علينا واما عدم السيف فانه يدل على عدم
القوة واما الكلاب فانهم رؤس الاعداء يقبضون عليك ولا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم فان صحت هذه الرؤيا فقد والله
زالت دولتنا وانقضت مدتنا فقال لهم السلطان ما بقي لنا حيلة
نحتال بها ولا منعة نستعين بها قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا
وتثلمت سيوفنا وقد قامت الدنيا كلها علينا فما عسى ان نصنع واما
انا فقد اردت ان اسلم نفسي فان كان قد بقي في عمري بقية
فانهم يعطوني الامان وان كان قد فرغ فان كنت على فراشي فاني
اموت واما انتم يا اعوان فقد حللتكم فليذهب كل واحد منكم
في ناحية الى حيث شاء واراد فلما طال الوقوف قال الامير حسن
ابن مرعي يا مولانا اني اخاف عليكم ربما ان يكون العدو قريبا منكم
فيعسر عليكم الدخول من مضيق فم الوادي فادخلوا بنا على بركة
الله تعالى ثم بعد ذلك اجلسوا واستريحوا ودبروا امركم كيف
تختارون قال الناقل قد دخل السلطان طوما باي من باب الوادي
ودخل وراءه الامراء والاجناد فقالت الامراء نحن معك لا
نفارقك حتى تذهب بنا واحنا فلا زال بهم حسن بن مرعي حتى اوصلهم

الى صدر الوادى فضربوا للسلطان خيمة على تل عال على جانب
البحر المالح ونزلت بقية الامراء فى خيمهم فما هدأت نفوسهم حتى
جاؤا للسلطان لضرب الرأى واما حسن بن مرعى فانه اخذ اذنا
من السلطان ليرجع الى بلاده ويأخذ لهم الاخبار ويرسل
لهم يعلمهم بما يقع بالتفصيل فاذن له السلطان فى ذلك ودعى
له ثم قال السلطان لامرائه هذا الوادى خير لنا من قلعتنا التى
كنا بها ما لم يخنا حسن بن مرعى فقالت الامراء كلهم عن لسان واحد
الله يخون الخائن ثم رجع حسن ودخل منزله فسألته امه عن
السلطان طومانباى فقال لها قد دخلته فى واد الغابة وها
أنا قد رجعت فقالت له امه فما تحب ان تصنع اخبرنى بما فى
ضميرك فقال لها ان هؤلاء الجموع دولتهم قد ولت وامورهم
قد حالت ولا سيما وعدوهم قد ملك البلاد وحكم العباد وولى
وعزل من اراد وهؤلاء ما عاد لهم من الامر الا ظهور خيلهم وقد
تحيرت فى امرى فان قاتلت عنهم فلا قدرة لى على ذلك وان قاتلت
معهم اوقعت نفسى فى المهالك فقالت له امه وكانت من
الصالحات يا ولدى الايمان والعهود التى قد حلفتها انت وابن
عمك له ما تقول فيها فقال لها ولهذا انا متحير فى نفسى كيف اصنع
فهو فى هذا الكلام مع والدته واذا بفرسان القبيلة قد جاؤا
مسرعين وقد علت اصواتهم وهم ينادون اركب يا امير حسن
فاننا ننظر عسكرا جرارا وخيلا ملأت الاقطار فركب حسن بن
مرعى وسار فى اول الخيل حتى اجتمع باوائل العسكر القادمين
واذا بهم عسكر السلطان سليم قد جاؤا فى طلب السلطان طومانباى
والسبب فى ذلك ان السلطان طومانباى لما ركب فى الليل
كما تقدم ولم يتبعه احد وطلع النهار جلس السلطان سليم وحوله
اكابر دولته وجاء الامير خير بك ولم يات الامير قانبردى الغزالى

فسأل عنه السلطان سليم فقيل له انه ركب نصف الليل ومعه
خمسة انفار من مماليكه وتبع السلطان طومانباى فهو الى الآن
لم يأت فخاف عليه السلطان سليم وقال لخيربك انظر الى قله
عقل صاحبك كيف يخاطر بنفسه فانهم ان فطنوا به لا يبقوا منهم
ابدا وانه ان قتل تعطل امرنا وخشى السلطان ان يطول عليه الامر
وحسب حتنا الاعادى التى حول مملكته قال فما الرأى عندكم قالوا آلوا
ما يراه الخنكار واطرق برأسه متفكرا فيما يصنع واذا بقاني بردى
الغزالى قد اقبل فلما حضر بين يدى السلطان سليم قال له اين كنت
يا قانبردى قال يا مولانا السلطان انى لما رحل طومانباى نصف
الليل احببت ان انظر الى اين يذهب فركبت وتبعتهم على بعد خشية
ان يدروا فرأيتهم قد سافروا الى ناحية البيرة والغزية
فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام قال له فما الرأى عندك قال
الرأى عندى ان تعطينى ما امرت من العسكر ويكون صحبتى الامير
خيربك وامرح نفسك فانى ارجو انى لا ارجع لك الا برأسه
فقال له السلطان العسكر بين يديك خذ معك ما شئت منهم
فاختار ان يكون اياس اغا اغاة اليكنجرية باربعة الاف معه وخيربك
باربعة الاف خيال فامر السلطان بذلك ففى الوقت برزت هذه العساكر
وامر على العساكر فرهاد باشا يكون سردار عليهم والامير خيربك
والغزالى يكونان تحت يده ويتقيدون برأيه فساروا فى اثر السلطان
طومانباى وهم يسألون من اهل البلاد حتى نزلوا على قبيلة محارب
وخرج لهم حسن بن مرعى كما تقدم فلما اجتمع بهم قالوا له انا سائرون
فى طلب السلطان طومانباى هل سمعت عنه خبرا الى اين يذهب
فقال لهم الذى يدلكم عليه ويسلمه لكم من غير حرب ولا قتال ماذا
يكون له عندكم فقالوا له ان اردت شاربطناك على مهما تريد وان
جعلت الامر لنا ولسلطاننا ولمروءتنا فيكون لك الذى يحصل لك اكثر مما

تؤمل انت فقال لهم على تسليمه لكم ولجعل الامر بيدكم فضمن له
الوزير فرهاد باشا ان يقدمه عند السلطان على جميع مشايخ العرب
وان يقطع ارضه اقطاعا له الى ان يموت لا يؤخذ منه الدرهم
الواحد ثم ان الوزير فرهاد باشا خلع عليه قفطانا مذهبا من الخلع
السلطانية وخلع ايضا على ابن عمه شكرو وعدهما بكل خير ثم خرج
حسن بن مرعى وابن عمه وهما فرحانان حتى دخل على والدته فقالت
ما هذه الخلعة ومن اين جاءتك فاخبرها بما وقع له وانه التزم
لهم ان يسلمهم السلطان طوما بناى فقالت له انسيت ما فعله معك
السلطان طوما بناى قد اطلقك من الحبس وامنك بعد الخوف
وحلفت له الايمان بانك ما تخونه فكان جزاؤه منك ان تسلمه
لعدوه وتظن انك اذا فعلت ذلك تلقى خيرا بعده والله لئن فعلت
ذلك لاغضبن عليك غضبة تكون سببا لهلاكك فقال لها فما
الذى افعله وقد رهنت لسانى معهم بانى اسلمه لهم واذا لم افعل
ذلك ما سلمت من شرهم وربما يبطشون بى فلا ينفعنى لا انت
ولا هو فقالت له ان الرأى الصواب ان ترسل فارسا للسلطان
طوما بناى وتخبره بما وقع وانه يكون على اهبة ان شاء حاربهم وان
شاء هرب الى جهة اخرى واما انت فارجع اليهم وشاغلهم الى ان
يطيب الطعام فبينما هم يأكلون يكون طوما بناى قد عدى بلادا
بعيدة او يكون قد تهيأ للهرب فتخلص انت من الجهتين فوافقها على
ذلك وخرج من عندها وهو متردد كيف يصنع ويقول لنفسه
اين عقلك تقتدى بكلام النساء النواقصات العقل والدين
وتترك ما يحصل لك من السلطان سليم من العز والجاه والتخير بين
العربان بسبب من غدرت به الايام والليالى وفاتت دولته
وانقضت مدته واذا لم امسكه انا امسكه غيرى وفاز بالفخر
والعز فليس هذا من الصواب فى شئ ثم انه اجتمع بابن عمه شكرو واخبره

بما قالت له امه فقال له شكرا وهل عاقل يبيع عاجله بآجله ولا تميل
الى الكفة الناقصة فيحصل لك الخسران فاتفقوا على ان يكونوا مع
السلطان سليم واما السلطان طومانباى فقال لاحد منهم انى اريد
ان اخبركم بما رأيت فى هذه الليلة رأيت ان قائلا يقول لى رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ويقول لك ان
دولتكم قد زالت وعمركم قد فرغ وانت جارنا فى الجنة بعد اربعة
ايام ارجع عن القتال فلا فائدة لك فيه وانا قد عزمت على رمى
سيفى فى هذا البحر المالح وقال لهم كل واحد منكم يذهب الى حيث
اراد وهذا اخر اجتماعنا فى الدنيا والقيمة تجمعنا فى الاخرة قال
الناقل فبينما هم فى هذا الكلام اذ قد رأوا الخيل قد اقبلت عليهم
من بعيد ففامت الامراء كلهم على ساق وركب الامير شربك وبقية
الامراء واتباعهم وحطموا على عدوهم بقلوب كالحديد لكن العدو
كثير وهم طائفة قليلة لكنهم فرسان عارفون بركوب الخيل واولئك
كثير غير عارفين بذلك لكن اعتمادهم الاقوى على الرماية بالبندق
والنشاب فلما رأهم الغز الى حطموا عليهم قال للعسكر فتحوا
لهم طريقا حيث ان طومانباى ليس هو معهم فصار من عسكر
الروم الذى يقرب على الجراكسة يقطعونه بالسيف الى ان وصلوا
الى آخر الجراكسة وهرب بعضهم من مضيق الغابة الى خارج واما
قانصوه العادلى فانه ذهب الى اصبهان من عرب قطار وكان
معهم نحو الفى فارس راكبة مع القبائل التى جاءت لنصرة السلطان
طومانباى فلما رأوه ترك الحرب وفعل بنفسه هذه الفعال تركوه
واخذوا اصبهان ورجعوا وصحبتهم سيدى يحيى بن الامير زيك
طلعوا من مضيق الغابة قبل وصول العسكر مع الذين هزموا واما
شربك الاعور فانه خرج قبل وصول العسكر وتبعه اثنان
من مماليكه وكان بينه وبين الامير احمد بن بقر شيخ العرب صحبة

اكيدة بحيث ان الامير احمد هذا اذا كانت له مصلحة في مصر وكان
ينزل الا عند الامير شربك فيقوم به الامير شربك احسن قيام وكرامه
غاية الاكرام وليس الخبر كالعيان وكان يقضي له جميع مصالحه من
جانب السلطنة ويقوم بناصره على اعدائه حتى ان الناس كانت
تقول نولا الامير شربك على الامير احمد بن بقر ما كان له حال
وكانوا يتعجبون من محبته له واكرامه وقيامه بشانه ويحسدو
على ذلك غاية الحسد حتى ان الامير شربك كان يقول له يا امير
احمد طول ما انا راسي تعيش لا تحمل هما ابدا ولا تحسب حساب احد و
السلطان الكبير فان الامير شربك كان يحسب حساب اقرانه الذين
في هلاكه فانه كان فريد عصره في الفروسية وركوب الخيل وكان
اذا ركب ونزل في الميدان عند لعب الجريد مع الامراء تحير النظار
ولم يقدر احد يقبل عليه وكان من شدة محبته اذا حصل له
مضايقة من السلطان او من احد من الامراء الاعيان يذهب
صديقه الامير احمد بن بقر ويدبر امره ولما كان من امر السلطان
طومانباى ما كان من تركه القتال وتسليم نفسه للعدو وخرج
الامير شربك من الغابة قال في نفسه ما الى او فق من ان اسير الى
صاحبي الامير احمد بن بقر وانزل عنده حتى ادبر نفسي فيما افعل اما
الى اسافر الى بلاد العجم واكون مع سلطانهم او اسافر الى بلاد
اليمن ولله التدبير فيما يريد والشاعر يقول

تحذر من صديقك كل يوم وبالاسرار لا تركن اليه
سلمت من العدو فما دهاني سوى من كان معتمدي عليه

فما زال سائرا من بلد الى بلد والدنيا قائمة على ساق والعربان هاجت
والدنيا ما بجت وصار كل مفعول جائزا وكل من كان له عدو
قصده فان ظفر به قتله والناس متنابون في بعضهم في اشد ما
يكون حتى وصل الى النيل السعيد وعدى منه الى الشرقية ثم سار

الى ان وصل الى الامير احمد بن بقر اخر النهار وحده فى منية غمر فرحب
به وانزله فى بيته واكرمه غاية الاكرام ثم حكى للامير احمد ما
وقع لهم مع عدوهم من الاول الى الاخر فكلهم تعجبوا من السلطان
طومانباى لانه اخطأ فى هذه الفعلة التى فعلها وتسليم نفسه اعلم
يتحكمون فيه كيف شاؤا وكيف يرى الهوان بعد العز وكان يقاتل
الى ان يقتل ولا يسلم نفسه فانهم لا يبقون عليه ابدا وتبقى
الاهانة والذل وشماتة الاعداء قبح واتعس فقال الامير
شربك قدر الله امر وذهبت دولتنا وما بقى كلام الا التدبير فى
المسير من هذه البلاد وقصدان يرسل يأتى بحريمه وولده ويخرج
ليقصد بلادا غير هذه البلاد فقال له الامير احمد بن بقر يا امير
قلت العارفون من تأنى نال ما يتمنى اصبر حتى ننظر ما يتم الامير
عليه فقال له الامير شربك اين عقلك حيث ان السلطان طومانباى
سلم نفسه لعدوه هل بقى لك بعد ذلك شئ فى غد نأتيك الاخبار
بانه صلب على باب زويله او علقت رأسه عليها هذا ما اجر للامير
شربك واما السلطان طومانباى فانه بقى وحيدا فريدا وقد رمى
بجميع عدته وسلاحه وملبوسه فى البحر المالح حتى المصفح الفولاد
الذى ليس له نظير فى الدنيا والقطارية المفردة حتى الطير الجناح
الذى لم يسمح الزمان بمثله فانه كان صاعقة من الصواعق لا يضرب
به على حديد الا قطعه ولا على حجر الا فلقه فكان من تحف الملوك
القدماء فعند ذلك حطمت عليه العساكر يقدمهم اياس اغا اغاة
اليكجرية وخيربك والغزالى وحسن بن مرعى فاقتضى رأيهم انهم
يقبضون عليه حيا ويأتون به للسلطان سليم يفعل به ما يجب
ويختار ثم امر اجميع العسكر ان يتمدوا سيوفهم فانه قد رمى
سلاحه ولا بقى معه احد يقاتل عنه ففعل الجراكسة كما امروا
وعسكر السلطان سليم كذلك ثم حلقوا عليه من كل جانب وصاروا

بينهم

بينهم كالسبع فعند ذلك نزل اياس والغزالى وخيربك وجاؤا
اليه فقال له اياس اغا الامر امر الله تعالى فقم لمولانا السلطان
اجعل يدك اليمنى فوق اليسرى ولا تؤاخذنا فى ذلك يا مولانا
ففعل وربطوهما من قدام واوثقوهما فان الاعيان لا يكتفون
الا من قدام ثم قدموا له بغلة واركبوه عليها وقيدوه من تحت
بطنها واحاطت به اليكنجرية وبقية العسكر وجدوا فى السير
كانهم وقعوا بفريسة عظيمة او لقية ولو امكنهم ان يطيروا
به لطاروا فاخذ يتكلم مع اليكنجرية فسألهم عن حالهم وعن قدر
جوامكهم فقالوا لكل واحد منا ستة عثامنة الى عشرة عثامنة
فقال لهم انتم جئتم من بلادكم الى هنا لاجل ذلك فقالوا نعم
فقال لهم بارك الله فيكم وبهذا قد غلبنا سلطانكم لطاعتكم له
على هذا القدر اليسير والله ان جامكية احدكم لا تكفى ان تكون
جامكية سايس من سياسنا فوالله ثم والله لو تكونون عسكرى
لجعلت لكل واحد منكم دينارا فى كل يوم فقال بعضهم لبعض ما الرأى
نطلق هذا الرجل ونكون اعوانا له ونأخذ دينارا فى كل يوم
ونصير عنده فى اعز ما يكون فمنهم من استصوب ذلك الكلام ومال
اليه ومنهم من قال لا يغركم هذا الكلام فانه ما قال لكم ذلك
الا لما رأى نفسه وقع فى ايديكم وهل يكون هذا قط ان يصير
لكل واحد منا دينار فى كل يوم فوقع فيهم الهرج وما زالوا سائرين
به حتى وصلوا الى اوطاق السلطان سليم وقد كانوا ارسلوا
اولا قاوقت قبضهم عليه يبشر السلطان بانهم مسكوه مسكا
باليد واعلموه كيف كان قبضهم عليه وان شيخ العرب حسن بن مرعى
هو الذى كان سببا فى ذلك لانه ما دلهم على موضعه الا حسن
هذا وانه حسن له عبارة فى دخوله فى هذا الوادى وحبسه فيه
وانه يستحق كل خير فانه لولا حسن هذا ما عرفنا له موضعا وذكروا

السلطان جميع ما وقع وانهم قادمون به بالقيد والسند بعد ان
كان قد رمى سلاحه فى البحر المالح وسلم نفسه بالامان وقد
تشتتت جميع عساكره ومسكناه باليد وهو واقف على جبل
عال بمفرده ففرح السلطان بذلك غاية الفرح وقال الآن ملكنا
ملك مصر فما تم الكلام الا وقد اقبلت العساكر ولهم ضجيج عظيم
فقام اوطاق السلطان على ساق حتى ان السلطان ارتاب من
ذلك وظن ان العدو قد هجم على اوطاقه فقالوا له البشارة
هذا ايا ساغا وخير بك والغزالى قد جاؤا بغزبك فلما وصلوا
الى خيمة السلطان سليم خرج لهم الوزير الاعظم يونس باشا
وامرهم ان ينزلوا السلطان طومانباى واخبروه بالواقعة من
اولها الى اخرها وانه لولا الشيخ حسن بن مرعى هذا والا ما كنا
عرفنا له طريقا فشكره السلطان على ذلك ووعده بكل خير
فلما اصبح الله تعالى بالصباح امر السلطان ان يعمل الديوان
واظهر ما عنده من الزينة الملوكية ورتبوا له احسن ترتيب
وحضر جميع العساكر ووقفوا بين يديه على حسب مراتبهم واوقف
موكبا عظيما ووقف اليكيرية صفوفا على احسن ترتيب وكذلك
المدافع فى ناحية العسكر صفوفا وجهزوا النار وهم منتظرون
امر السلطان ان يطلقوا عليهم وعلى البنادق نارا وتندق الكاسات
والطبلخانات التى للسلطان والتى للوزراء والباشاوات والامراء
ثم امر باحضار السلطان طومانباى والامير حسن بن مرعى فلما
حضر السلطان طومانباى ادخلوه من بين هذه العساكر ورأى
نظام العثمانية فى احسن ما يكون ونظر هذه العساكر وهذا
الترتيب الذى لا عين رأت ولا اذن سمعت ولما دخلوا به على
السلطان سليم خان سلم عليه بسلام الملوك فرد عليه السلطان
سليم كما يجب ولم ينقص مقامه فى سلامه ثم وقف طومانباى

فامره

فأمره بالجلوس فجلس وهو فى غاية الندم على ما فعل وقال انى كنت
طيرا طائرا وكانت الارض واسعة اذهب الى حيث ارید واختار
فسلمت روحى لعدوى بيدى بئسما كانت فعلة فعلتها اوجبت
لى الهم والذلة كل ذلك خطر فى نفسه وهو جالس لا يتكلم
ولا احد يتكلم ولا يرفع صوته ولا رأسه فنظر السلطان سليم
وتأمله بعين الفراسة فوجد فيه كل شئ يشهد له بالشجاعة
والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه فتعجب السلطان سليم
فيه كيف سلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شئ فيه
يشهد بانه جبان ابدا بل انه اذا راه من لا يعرفه يشهد له بانه شجاع
بطل ثم ان السلطان سليما قال فى نفسه انما هذا امر سماوى
اصابه وطالع نحس غير صوابه حتى رمى سلاحه وسلم
نفسه مع انه قاتل قتال الجبابرة ولا لو هرب كانت الدنيا واسعة
بين يديه اينما شاء ذهب وحيث طلب هرب ثم التفت اليه وقال
له يا طومانباى كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين
اولا انى ارسلت لك من الشام ان تجعل السكة والخطبة باسمى
وانت مقيم على ملك مصر وانا اظهرك ومعين لك على سائر ملوك
الارض فأبيت ذلك وقلت رسلى والرسول لا يقتل فسرنا
بعساكرنا لقتالك ورفعنا الاعلام ونشرنا العساكر على خراب
ديارك فاول مقابلتك فى الريدانية هزمناك الى الصعيد وارسلت
اليك رسلا الى الصعيد ومعهم قضاة بلادكم فلم تقبل الصلح
وقتلت القضاة وتعديت شيم الكرام بقتل الرسل اولا وثانيا
ثم عاتبته عتابا كثيرا فقال له طومانباى والله انه لم يكن
شئ مما جرى بخاطرى ولا بأمرى ابدا ولا برايى وانى لما ارسلت
الى من الشام الرسل اكرمتهم وامرت بنزولهم فى دار الضيافة
وفى نيتى ان افعل ما جاؤا به واعرد الجواب كما امرتنى فلا قاهم الامير

علان وهم سائرون الى بيت الضيافة فقتلهم فلما بلغني عسر علي
ذلك وكذلك الرسل الذين ارسلتهم جرى في حقهم ما جرى
في حق غيرهم من غير رضاي وكل هذا ليس بأمري ولا بارادتي
وانما جرت بهم المقادير من الرب القدير وحتى تجري الامور على
ذلك على ما كانت من قديم الزمان بان دولتنا زالت وادبرت
ودولتكم جاءت واقبلت وهذا شيء كتبه الله تعالى في القدم
ولجري به الاقلام ودارت به الافلاك وسارت به الكواكب وما اراد
الله فلا مرد له ولا يغلب الله غالب تبارك وتعالى رب الافلاك
والكواكب ولولا ذلك ما قدرت انت ولا غيرك على اخذ بلادنا
فانه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنتم اقوى منا ولا اشجع وها
انتم رأيتم كيف فعلنا مع عسكركم وكسرتهم كذا كذا مرة واما قولكم
انكم كنتم تريدون ان تكون السكة والخطبة باسمكم وان تكونوا
رؤس الملوك بخدمة الحرمين الشريفين فانا والله ما اخذت
السلطنة برغبة مني وانما قومي وعسكري اختاروني ورغبوا
في ان اكون انا السلطان عليهم لما علموا من زهدي في ذلك المال
فلما تقلدت ذلك وجب علي ان ارد عنهم وادافع عن اموالهم
وانفسهم واولادهم وحريمهم واما انت فانما قيامك في حفظ
نفسك لا غير خصوصا ونحن مسلمون فكيف تستحل قتل المسلمين
وترمي عليهم بهذه المدافع والنيران كيف بك اذا وقفت بين يدي
رب العالمين فما جوابك وكل ملك وان تعاظم ملكه فهو لله عبد
اصغر فيها انت وانا الا بجملة العبيد فتعجب السلطان سليم ثم قال
له انا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الاعصار والامصار وانا
كنت متوجها الى جهاد الرافضة وانجار فلما بغى اميركم الغوري
وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار انه يمشي
الى مملكتي التي هي موروث اباي واجدادي فلما تحققت ذلك تركت

الرافضة ومشيت اليه ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتكم
وبعد حضوري الى الشام سمعتانك عملت سلطانا على الكنبش
الاجلاف وانت لست اهلا لها والسلطنة لا تكون ولا تليق الا
برجل يكون اباؤه واجداده سلاطين وانت وقايتباى الذي
هو اعظمكم والغوري ما اسما ابائكم ومن اين لكم السلطنة
ومن اين لكم الامارة كلكم اولاد نصارى وانتم مماليك بلا عتاقة
حتى بقيتم من قلة عقلكم وقلة ادبكم تعملون الرجل منكم سلطانا
تغرلونه وتقتلونه اى يد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا
وتطولوا اياديكم على السلاطين فانت وقومك كم قتلت من عسكري
كل مسلم وابن مسلم فما جوابك عنه عند الله تعالى فقال له مسرعا
ان الله تعالى قد اجاز لي ذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز
وهو اصدق القائلين فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم اللهم ان المرحوم الملك الاشرفي قانصوه الغوري وقع بينك
وبينه التنافس ودخلت الشياطين بينكم ورمت الاعادي بينك
وبينه وختم الله تعالى له بالشهادة وستقف انت وهو بين
يدي رب العالمين واحكم الحاكمين واما انا فليس بيني وبينك عداوة
ولا احد من عسكرك ولا غيرهم فقال له السلطان سليم والله ما كان
قصدي اذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو اطعتني من الاول
وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دستار رهنلك
فقال له طوما باى الا نفس التي تربت في العز لا تقبل الذل هل الرأي
لك انا وامرتك ان تكون تحت امري هل كنت ترضى بذلك وهل سمعت
ان الاسد يخضع للذئب لا انتم افرس منا ولا اشجع منا وليس في
عسكرك من يقايسني في حومة الميدان ونحن قوم قد خصنا الله
سبحانه وتعالى بذلك ولكن انا اعرف ان ما عليك اضر من هذين
الشيطانين الخائنين فانه لو كان فيهما خير لكانا قتلنا فقال السلطان سليم

للحاضرين والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن اخروه في الترسيم
حتى ينظر في امره فأخذه اياس اغا وذهب الى خيمته واجلسه
بها واخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين في شأنه واذا
بالبشارة قد جاءت من عند الامير احمد بن بقر بأنه قبض على
شربك الاعور وانكم ترسلون من يأخذه فازداد فرح السلطان
سليم بذلك وقال من يذهب اليه ويأتي به فقال الغزالي على
ذلك فقال له انت لها يا ابا منصور فقام الغزالي من وقته
وخرج واخذ معه مائتين من نقاوة العسكر فما تم النهار الا وهم
في منية عمر فوجدوا الامير احمد بن بقر واقفا لهم في الانتظار
فلما اجتمع بقانبردي الغزالي وسلم عليه قال له احمد بن بقر
انزل الى الضيافة قال لا يمكن ذلك فان السلطان سليما نصره الله
تعالى امرني ان ارجع اليه في يومي هذا فاسرع لنا بشربك وسر
معنا الى السلطان ليكافئك على فعلك ولا تخبرني كيف مسكته
انا ونحن سائرون فعند ذلك احضروه وهو مقيد مزندو ووقع
بصره على احمد بن بقر وقانبردي الغزالي فقال لهم الله يخون الخائن
فلم يرد له جوابا وركبوه على بغل وقيدوه من تحت بطنه وطاروا
به كما يطير الغراب اذا اخذ البيضة ثم اخذ احمد بن بقر يحكي لقانبردي
كيف قبض عليه فان الامير شربك لما خرج من الغابة بعد ان ايس
من السلطان طوما باي وقصد صديقه وحبيبه الامير احمد
ابن بقر فلما وصل اليه اكرمه وزاد في اكرامه وقال له لا تخف
ولا تحزن حيثما وصلت الى فحكى له الامير شربك على ما حصل
من السلطان طوما باي وكيف سلم نفسه لعدوه وهو حي سالم
في البحر المالح وان ذلك كان سببا لانقضاء الدولة ثم دخل الليل فنام
الامير شربك ليأخذ لنفسه الراحة وكان له عدة ايام وليالي لم
ينم ولا طرق النوم عينه فنام واطمأن على نفسه فقال احمد بن بقر

لأصحابه خطر عندى شئ اذكره لكم قالوا وما هو قال ان هؤلاء
القوم قد زالت دولتهم حيث ان سلطانهم قد سلم نفسه وانى
اريد ان افعل كما فعل حسن بن مرجى واجعل لى يدا عند السلطان
سليم واخذ العسكر انية على غرى فقالوا له هذا هو الصواب
قال فقمت من ساعتى ودخلت عليه وهو نائم ومعى نحو عشرة
او عشرين نفسا فضربته بالنبوت فى رأسه بعد ان نبهته بسرعة
فلما رفع رأسه وهو مدهى من ضربته التى فى رأسه وقد بطحته
امرت بقية الحاضرين فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه وزندتر
وارسلت لكم على الفور اعلمكم بذلك فشكره على ذلك فانبرى
الغزالى وقال له الآن قد اشتفى قلبى من هذا الاعور الخبيث وكانوا
مجدين التدبير به حتى وقفوه بين يدى السلطان سليم فامعن النظر
فوجده من اكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليه وشجاعته لابسته
ذو استكانة وهيبة ووقار وضخامة وحشمة فاراد السلطان سليم
ان يختبر كلامه حتى ينظر عقله فقال له السلطان كيف تنظر الدنيا
يا شريك فقال كلا شئ فقال له حيث كانت كلا شئ فكيف تقاتل
عليها وتحارب فيها قال انما قاتلت عليها ولا نافست احدا فيها وانما قاتلت
عن مالى وعيالى وعرضى واولادى وكتاب الله تعالى وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم اجاز لى ذلك فاما الكتاب فقد قال الله
تعالى فى كتابه العزيز فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم وقال تعالى اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله
على نصرهم لقدير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل
دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عياله فهو شهيد فمن اين تقاتلكم
الا باذن من الله ورسوله وانت باى دليل استحللت دماءنا
واموالنا فقال السلطان سليم ولا قد استفتيت عليكم واجاز لى
العلماء بذلك فانه قد بلغنى انكم تقتلون ملوككم وتأخذون الامر بالسيف

ولا تعفون على الحدود الشرعية فقال شريك اما قتلنا الملوك فانه
كلام باطل فقد اقام المرحوم الملك السلطان الاشرف قايتباى
نحو ثلاثين سنة وهو ملك مصر الى ان مات رحمه الله تعالى
واما ابنه محمد فقد تعدى الحدود ولم يقف على حدود الشرع
ولهذا قتلناه واما الذين تولوا بعده فاننا لم نر فيهم قابلية للملك
فلهذا قتلناهم فمنهم من حبسناه ومنهم من قتلناه اتقاء لشره وقد
اخترنا المرحوم الامير قانصوه الغورى وجعلناه سلطانا فاقام
الى ان خرج اليك لامر اراده الله تعالى فى الازل الى ان حصل ما حصل
وآخر الحياة الموت وما نحن باقون من الموت فقد قال الله تعالى
انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون
فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام من شريك اشار بيده ان
اخرجوه فاخرجوه فى الترسيم واقعدوه قال الراوى فى اليوم
الذى جاؤا بالسلطان طومانباى بعد سؤاله وجوابه اليه قبل
ما يعطيه الترسيم اشار اليه بيده ان اطلقوا المدافع والضربزانات
والبنادق ودقت النوبة السلطانية ودقت الكاسات والنقاريات
واطلقوا المدافع والضربزانات والبنادق وكبروا تكبيرات ثلاثة
ايام حتى تزلزلت الارض وضربوا النوبة من الوزير الاعظم وسائر
الوزراء والباشات والامراء وبعد اخرها اشار على ترسيم السلطان
طومانباى ثم امر ان ينادى فى جميع مصر بالزينة فزينوا الناس
جميع مصر والقاهرة وجميع البيوت والدكاكين وامعن الناس
فى ذلك واشيع فى سائر اقليم مصر بان السلطان طومانباى
مسكوه بدلالة حسن بن مرعى وصار الناس منهم من يصدق
ومنهم من الاطراف والفلاحين من يكذب ولما كان فى ليلة
الاحدى والعشرين من شهر ربيع الاول وكان السلطان طومانباى
قد صلى العشاء وجلس وهو كثير التفكر زائد التضجر وزائد الحسرة

متتابع العبرات اخذته سنة من النوم وهو جالس فاذا هو بشخص
واقف قدامه وقال له يا طوما نباى قدم نفسك للرحيل فقد
مضى الكثير والقليل وجاء الوقت المعلوم فانتبه من نومك فقد
حصل فراقك من اهلك وقومك فانتبه مرعوبا فزعا وتعوذ
بالله من الشيطان وقرأ ما تيسر من القرآن فنزل عليه من النوم
شيء ثقيل فاضطجع كانه ميت او قتيل قال ولم ينزل عليه من النوم
طول عمره اثقل من تلك الساعة والسبب في ذلك ان الروح تعلم
بفراقها للبدن فتودعه بطيب الوسن ثم افاق بعد ذلك فوجد
نفسه كانه صبت عليه ماء من كثرة العرق وكان هو لذلك اخر بذلك
عن نفسه للقاضي اصيل الطويل فانه لم ياته احد من اهل مصر محبة
واوصاه ان يغسله ويكفنه بيده وقد فعل ذلك كما اوصاه
قال الناقل وما زال السلطان طوما نباى على سهرته الى الصباح
فلما تبايت الوجوه واذا بالجاووشية قد جاؤا اليه والغليصية
وهم مسرعون وقالوا له قم فان السلطان يطلبك فقام معهم
وسار وابه الى ان قرب من خيمة السلطان سليم اوقفوه واذا بقاجي
اغاسي قد خرج من عند السلطان وقال قد برز امر السلطان بان
تسيروا به الى باب زويلة وتصلبوه هناك وجاؤا له بالبغلة
واركبوه عليها وقيدوه من تحت البغلة ودارت حوله اليكنجرية
والعساكر من سائر الطوائف وخرجوا به من وطاق السلطان
الى انابه ونزلوه في مركب وعدوا به الى بولاق ودخلوا به من
مرجوش الى بين القصرين وقد انقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء
والصياح وكان الواحد من عسكر الروم يجيء الى الرجل من اهل
مصر ويقول له هذا الذي على البغلة هو السلطان طوما نباى
ام غيره فيقول المصري هو هو وكان ذلك اليوم على اهل المملكة
اشأم الايام وبكت عليه الارامل والايتام

ذكر صلب السلطان طومانباى على باب زويلة

قال الراوى فلما وصلوا به الى باب زويلة وجدوا الجبل مرخيا فاسرعوا به وانزلوه عن البغلة وصلبوه من غير مهلة ثم بعد ذلك انزلوه وساروا به فى نعش الى قبة السلطان الغورى فغسله القاضى اصيل الطويل وكفنه من ثياب ارسلها له السلطان سليم من خاص الموصلى الرفيع ثم صلى عليه القاضى ايضا كما اوصاه ودفنوه فى قبة السلطان الغورى وارسل السلطان سليم ثلاثة اكياس من الفضة تصدقوا بها عليه قال الراوى انه حضر الصلاة على السلطان طومانباى ثم ان الذى فرق الاكياس على الناس فرقها من غير عدد بالنصيب اعطاه ثلاث حفنات فضة واعطى القاضى اصيلا مثل ذلك وفرق الباقى على الناس من غير عدد بالنصيب قال ثم ان السلطان سليما فى الساعة التى امر فيها بصلب السلطان طومانباى احضر الامير شربك الاعور وامر بضرب عنقه فقطعوا راسه وجاءت عياله وغلامه الحاج فارس فاستاذنوا فى اخذه فاذن لهم فاخذوه وجاؤا به الى المدرسة البيبرسية وغسلوه وصلوا عليه ودفنوه فى مسجد من داخل الخوخة التى عند القرن بالقرب من داخل المدرسة المذكورة وكان هذا اخر مدة الجراكسة وهو يوم الاحد الحادى والعشرين من شهر ربيع الاول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة قال المؤلف الذى وصل الى علمى من لفظ سيدى محمد بن السلطان الغورى ان السلطان سليما لم يكن فى نيته قتل السلطان طومانباى وانما كان السبب فى ذلك خير بك نائب حلب وقانبردى الغزالى فانهما لما رايا السلطان سليما لم يسهل عليه قتله وصرح لهم فى المجلس العام بان مثل هذا لا يقتل لما رأى كلامه مسددا وهو حق وصدق وثبت عنده صدقه وظهر له حاله ورأى من شجاعته ما يفوق الوصف فلم يسهل عليه قتله وكان اراد ان

يأخذه معه الى بلاد الروم ويبقيه عنده فخيرة بعد ان يستحلفه
الايمان المغلظة وثبت عنده دينه وصلاحه وكان رحمة الله
عليه محبوبا لكل من يراه فلا يراه غريب ولا قريب الا احبه وشهد
له بالصلاح فخشي خير بك على نفسه وكذلك فانبردى ان السلطان
سليما ان اخذه معه وصار بينهما اتحاد لا يبقى عليهما فأخذوا
يدبرون الحيلة ويحسنون للسلطان سليم قتله وانه متى ابقى
عليه لا يقوم له نظام ابدا وربما يفسد عليه عسكره فانه رجل
شجاع وكريم الغاية الدنيا عنده لا قيمة لها ابدا وخصوصا للاجناد
والعساكر فعند ذلك اقتضى رأى خير بك والغزالي بأن يكتبوا
للسلطان ورقة ويرسلوها من غير ان يشعر بها احد من الوزراء
ولا من غيرهم ومن جملة ما كتبوا فيها فليعلم مولانا السلطان
ان اهل مصر الذين تشتتوا من الحراكسة لم يصدقوا ان سلطانهم
عجز وسلم نفسه وقبض عليه وكذلك اهل الاقاليم والعربان
وايضا ليعلم مولانا الخنكار انك متى ابقيت عليه فقد ضيعت
تعبك وسفرك وهلاك عسكرك واموالك فانه بمجرد ما تسافر
من هذه البلاد لو كان تحت الارض خرج منها وافسد عسكرك
بالعطاء وتندم حيث لا ينفع الندم فان اردت ان تطيعك الممالك
والبلاد وتحتوي على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ولا
مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه وارسل اصلبه على باب زويلة
ليراه الخاص والعام وشاع ذلك في سائر البلاد وتيأس
الناس من بقائه وترقوا الدنيا وتطمئن على نفسك وتملك هذا
الاقليم العظيم الذي ليس له نظير تحت سماء الدنيا ولقد قال
بعض الحكماء عدوك لا تصافيه وصديقك لا تجافيه وقال الشعر
من لم يحسب العواقب هما الدهر له بصاحب فعند ذلك امر السلطان
سليم بصلبه طوما باناى وسرى عنق شربك كما تقدم *

ذكر صفة السلطان طومانباى رحمه الله تعالى

كان رحمة الله عليه على ما حكاه عنه سيدى محمد بن المرحوم الغورى والقاضى اصيل الطويل والامير زمك الناشف وغيرهم ممن رآه وعاشره وعرفه ظاهرا وباطنا فاتفق الجميع على انه كان مقداما خبيرا بالحرب ومواقع الطعن والضرب والدخول فى الميدان والخروج منه لا يرهب القتال ولا يخطر الموت له على بال وقد ذكرنا ذلك فى حروبه ووقائعه وكان متوسط الطول ذهبى اللون واسع الجبين اسود العين والحاجبين واللحية وكان دينا صالحا خيرا فاضلا زائد الادب والسكون والخشوع والخضوع ملازما لزيارة المشايخ الاحياء منهم والاموات حتى انه لما غسله الغاسل وقلعه ما عليه من الثياب وجدوا على بدنه جبة صوف حمراء واوصى ان يدفنوه بها ولم يظهر عنه فى حياته شئ من الافعال الرديه ابدا لا شرب خمر ولا زنا ولا فواحش ابدا وكان قليل الشهامة لا يظهر شيأ مما يفعله اهل التجبر والعنف وكان الغالب على حاله السكينة والوقار وكان غالبا على نفسه رزينا فى احواله لين الكلمة ذا انخفاض كثير الرحمة والشفقة على كل احد حتى انه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة فى قتال السلطان سليم صارت الناس يتعجبون منه غاية العجب ولا كان احد يظن انه بهذه الصفة وكان الذى عمره ما رآه اذا رآه لا يشك فى انه عبد صالح فان الصلاح والانس والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه وقد تقدم فى التاريخ ان السلطان سليما ما هان عليه قتله لما رآه وسمع كلامه وقال له والله يا طومانباى لو كنت اطعتنى على مراده بان تجعل السكة والخطبة باسمى ما دخلت لك ارضا ولا بلادا ولا وقع بينى وبينك حرب ابدا ولكن لكل شئ سبب حتى جرى القضاء والقدر وقتل من قتل وسلم من سلم وكانت زوجته خوند

بنت قانبردى الغزالى ديوبداركبير وتزوجت بعده برجل يقال
له ابن الشيخ ابراهيم الكلشنى وبقيت بمصر الى ان ماتت ولم
يخلف السلطان طومانباى اولاد الاذكورا ولا اناثا واكثرت
فيه الشعراء من المراثى والقصائد ومضى كأنه لم يكن وكان لقاضى
اصيل الطويل دائما يحكى عنه حكايات غريبه وامور عجيبه
تشهد له بأنه من عباد الله الصالحين ومات القاضى اصيل فى
سنة سبعين وتسعمائة قال الراوى قد قدمنا فى هذا التاريخ
ان السلطان طومانباى تولى فى يوم الاحد الخامس عشر من شهر رمضان
سنة تسعمائة واحدى وعشرين وانقطع اسمه من الخطبة على
منابر مصر فى اول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وكان من
حين ضربت له السكة واقيمت له الخطبة ثلاثة اشهر وخمسة
أيام قال المؤرخ وفى الساعة التى امر السلطان سليم فيها بصلب
طومانباى وقتل الامير شهبك احضر فيها شيخ العرب حسن بن
مرعى وابن عمه شكر اوشيخ العرب احمد بن بقر وخلع عليهم خلعا
عظاما من اجل خلع الملوك واعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده
اقطاعا له لا يحمل من مالها لديوان السلطان شيئا وكاد رهما واحد
ما داموا فى قيد الحياة وارسلهم الى بلادهم بعد ان احسن اليهم
احسانا جزيلا واكرمهم اكراما عظيما

ذكر تولية الكشاف ومشايخ العربان

قال الراوى ثم امر السلطان بتولية الكشاف فولى الامير جانم على
البهنسا والفيوم وجانم هذا هو الذى تحارب مع السلطان
طومانباى وولاهم على ما كانوا عليه فى مناصبهم وامر ان يكتب
فى الدواوين ولجميع الحكام بعدم المعارضة لجميع اصحاب
الاقطاعات والارزاق والاوقاف والجوامع واولاد الامراء والامراء
الجراكسة الذين تخلفوا وكل من بيده شئ من الارزاق هو باق عليه

وجعل لعنة الله ثلاث كرات على من غيرا و بدل شيئا من ذلك
ففرح الناس بذلك غاية الفرح ثم ان السلطان قال للامير
خيربك اريد ان اعلم قدر مال مصر وما يجمع منها في كل سنة قال
يا مولانا انكارها يعلم ذلك ولا يعرفه الا القاضي ابو بكر بن
الجيعان فامر باحضاره فلما حضر قال له خيربك مولانا السلطان
يريد ان تخبره بما يجمد من مال مصر في كل سنة على وجه مختصرا
فقال له القاضي في غد ان شاء الله تعالى آتيه بخبر ذلك ثم انصرف
ورفع الدفاتر التي قد كان جاء بها وجاء في ثاني يوم وقد كتب جملة
خراج مصر على ظفره فاعجب السلطان ذلك وقال له بارك الله فيك
خير القول ما قل ودل ثم ان السلطان امر بالرحيل من برانيا به وجاء
الى المقياس ونزل فيه ومعه جميع اكابر دولته واعيان اجناده
ثم ان السلطان خلع على شيخ العرب حماد بن خير شيخ عرب غزالة
باقليم الجيزة وجاء اليه الامير علي بن عمر شيخ هوارة فخلع عليه
بامرية الصعيد بمدينة جرجا وخلع على علم الدين شيخ بني عدي
وكتب لهم التواقيع بذلك وخلع عليهم وانصرفوا قال المؤرخ
ومن غريب ما جرى ان الامير قانصوه العادلي لما سمع بشنق
السلطان طومانباي وقتل الامير شربك كان عليه ذلك اليوم
من اشئم الايام وهجر الطعام والمنام ثم انه حدث نفسه بان يتحيل
بحيلة على قتل السلطان سليم فسهر ذات ليلة وهو متفكر فيما يفعله
وكيف يتوصل الى ما اراد فدبر في نفسه ان يلبس مثل العرب
ويأخذ معه جماعة من اهل القوة وينزل الى مركب ليلا ويسير
بها الى تحت المقياس ويجعل له سلم تسليم ويصعد عليه وينزل
الى داخل المقياس ويقتل السلطان سليما ويأخذ بثار قومه وما
علم ان الحي ما له قاتل ثم انه فعل ذلك حتى وصل الى الطيارة التي
فوق المقياس وهي محل السلطان فوجد الحرس مستيقظين وسمع

حديثهم فكمن في محل وقال في نفسه اصبر لهم الى ان يناموا فلما
سكت حسهم ظن انهم قد ناموا وكانوا يقظانا وبون الحرس بالساعات
فقام ومشى الى ان قرب منهم فغطنوا به ورأوه بالعين فقاموا
اليه يتصايحون بالسيوف مسرعين في طلبه فرجع هاربا الى
الموضع الذي جاء منه وفيه سلم التسليم فما ساعده الا ان رمى
نفسه من فوق الشراريف الى البحر وارتمى في التيار وتبعته
جماعته بالقوارب فحصلوه وهو عائم فاطلعوه واخذروا به
ولم يبلغ مقصوده واما السلطان سليم فانه قام مرعوبا من نومه
لما سمع الضجة وطل من اعلى القصر ونظره وهو عائم في الماء
فامرهم بالرمي عليه بالبندق فلم يصبه شئ من ذلك الى ان
وصل الى ساحل بولاق وبقي مقهورا لانه لم يبلغ مقصوده
وكان في علم الله ان الذي بقي من عمر السلطان سليم ثلاث سنوات
فانه مات بالقسطنطينية في سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن
بها ومن الغرائب ان مدفنه لا يذهب اليه احد ولا يزوره الا النادر
فانه كان سفاكا للدماء لا يتوقف في قتل احد واما تربة والده
المرحوم السلطان ابا يزيد فانها تيرة عامرة مؤهلة للناس لا ينقطعون
عنه الا ان كان بعد صلاة العشاء فانه كان عبدا صالحا لا يشك
في ولايته وكان بينه وبين المرحوم السلطان قايتباي مودة
عظيمة ويهادون بعضهم بعضا في كل عام ويرسلون لبعضهم
السلام ويطلبون من بعضهم الدعاء الى ان توفاهم الله تعالى
تغمدهم الله برحمته ورضوانه واعجب من ذلك ان خير بك
ملك الامراء بمصر لما ان اقامه السلطان سليم على ملك مصر الى ان
يموت فامر بعمل تربة لنفسه وجعلها في باب الوزير على طريق
القلعة يمر عليها الباشات والصناجق والاغوات عند ذهابهم
وايابهم فلم يلتفت اليه منهم احد ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة

مع انها تزينة مليحة المنظر ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لانه
كان سببا في هلاك الوف مؤلفة من الجراكسة والارمن والعرب
وغيرهم فان بعض الحذاق من المؤرخين قاسوا وقعة الجراكسة
مع السلطان سليم على وقعة تيمورلنك الذى اخرب حلب والشام
وقتل اهلها وعساكرها فوجدوا قدرها خمسة عشر كرة تقريبا
قال المؤرخ ثم ان السلطان سليما اشتهى خاطره ان يذهب الى
الاسكندرية ويتفرج عليها ويحيط بها علما ففرج في خمسمائة نفس
من اخصاء عسكره واخذ في البحر فراى مدينة فوة ورشيد
وغيرهما من البلاد ورأى تلك الارزاق وراى الخيرات التى كانت
في ايام الجراكسة فتعجب من ذلك وقال ان هذا الاقليم لا نظير له
في كثرة الارزاق والخيرات ثم اخذ الى رشيد واحاط بها علما
ثم طلع في البر الى الاسكندرية واقام بها ثلاثة ايام ثم رجع
ونزل في المقياس وبقى كل ليلة ينزل في الذهبية التى عمرها السلطان
قانصوه الغورى وكانت كلها منقوشة بماء الذهب كالاسقفة
التى في الغورية وكانت لها بهجة عظيمة وكان الحاج عبد القادر
الاعرج هو الرئيس الذى يمسك الدفة ويقلع به ويجدف فاتفق
انه في بعض الليالى اراد السلطان الطلوع من الذهبية الى
المقياس فلما قاربت الذهبية سلالم المقياس رهم السلطان ان
يطلع فلم تسهل رجله الى درج المقياس وكاد ان يسقط بين
الدرج والذهبية والحاج عبد القادر واقف بحذائه ليطلعه
فلما رآه هوى الى البحر وكان يتلاحق به فما حصل الا عنقه فامسكه
وجذبه الى الذهبية من الماء فساعده عمر السلطان فاطلعه الى
المركب وقد غاب صوابه وايقن بالغرق فلما ردت اليه روحه
قال له تمن على ياعبد القادر فقال تمنيت ان اكون معرفا
البحرين فكتب له السلطان ان يأكلها الى الممات من غير ان يحمل منها

الى

الى الديوان شئ مطلقا وان يكون مسموع الكلمة منقام الحرمة
الى ان يموت واعطاه عطايا الملوك ولما اصبح السلطان أمر
بالرحيل من المقياس فانزله خيربك فى بيته العربية الذى على بركة
الفيل فانه ليس له نظير فى حسن بنائه ومنظره فاقام بها اياما
ثم امر بالرحيل الى القسطنطينية وكان من امراء الصناجق امير
سكن فى قناطر السباع فهجم عليه طائفة من اليكچرية فقتلوه
فوصل خبره الى السلطان فقبض عليهم وقتلوهم عن اخرهم وكانوا
نحو العشرين رجلا ثم ان السلطان سليما قبل الرحيل يوم خلع على
خيربك نيابة مصر ولقبه ملك الامراء وابقى عنده خمسة الاف
يكچرية ما عدى العسكر الخيالة وقال له اعطيتك هذه المملكة
اقطاعا لك الى ان تموت وكذلك فعل بقانبردى الغزالى فاعطاه
الشام اقطاعا له الى ان يموت ثم ان السلطان امر خيربك بأن كل
من جاءه من الجراكسة الهاربين وطلب منه الامان يقبله ويبقيه
على منصبه واوصاه واكد عليه فى ضبط البلاد والانصاف بين
العباد ثم ان السلطان انصرف وامر بالسفر فلما سمعت الجراكسة
بذلك اطمأنت قلوبهم فجاء الامير برزمك الناشف والامير ازبك
وسيدى على بن سودون الدوادارى وغيرهم ممن كانوا هاربين
مختفين وطلبوا الامان من خيربك فأمنهم واستقل خيربك بملك
مصر يتصرف فيها تصرف الملوك واما سيدى محمد بن الغورى فانه
اخذه السلطان سليم معه الى بلاد الروم وكذلك الامير قانصوه
العادلى فان السلطان سليما لما ان جاءه قانصوه العادلى فى
المركب وطلع من على شراريف المقياس يريد ان يقتل السلطان
سليما كما تقدم وقد كان السلطان ارسل خلف خيربك وقال
له لابد وان تأتينى بخبر هذا الرجل الذى خاطر بنفسه وجاء
فى الليل ليقتلنى فاستقصى خيربك الخبر فقيل له هذا هو الامير

قانصوه العادلى فلما اخبر السلطان به قال له لابد وان تأتينى
به فقال له يبرز امرك بالامان فلعل ان يطيع ويدخل فى يدنا -
فحلف السلطان ايمانا مغلظة انه ان قابله بالامان فعليه امان
الله ورسوله والغائن يخون الله تعالى فأرسل له خيربك من
استعطف بخاطره وقال له ان السلطان قد ندم على ما فعل من قتل
طومانباى وشربك وما كان قصد السلطان شيئا من ذلك وانما
عنادهم هو الذى اوجب ذلك فانهم لو اطاعوه من الاول وجعلوا
السكة والخطبة باسمه لكف عنهم ورجع الى بلاده وابقاهم
على بلادهم ولكن جرى القلم بما به الاله حكم وقد تم الامر وما بقى
الا شر ولاحر والاولى والاحسن ان تقابل السلطان وتأمن على
نفسك ومالك وعيالك فلما سمع الامير قانصوه العادلى ذلك
الكلام طاب خاطره للمقابلة وقال فى نفسه اما الموت فلابد منه
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فتوكل على الله تعالى وسلم امره لله
وقدم على خيربك ليلا فلما اجتمع به خيربك تلقاه بأحسن ملتقى
وقال له ما بقى كلام وقد مضى ما مضى وتكلم معه كلاما كثيرا ومن
له من السلطان الامان واعلمه بأن السلطان لا يخالف خيربك فى
شئ من ذلك فانه كان يعتقد محبته له ولما طلع النهار ركب خيربك
وقانصوه العادلى وذهبا الى السلطان سليم فلما وقف بين
يديه نظر اليه وتأمله وقال له ما اسمك فقال له اسمى قانصوه
العادلى فقال انت الذى جئتنى فى الليل وأنا فى الحمام قال نعم
قال صف لى كيف صنعت فوصف له جميع ما صنعه فقال له
السلطان لاى شئ فعلت ذلك قال له قانصوه العادلى اما تدرى
ما صنعت انت وما فعلت فى سلطاننا وما اهلكت من عساكرنا وما
اخربت من ديارنا ويتمت من اطفالنا وما هتكت من حريمنا وما
اخذت من اموالنا وما فعلت معنا من فعل لم يفعله احد من قبلك

ونحن مسلمون مؤمنون موحدون حماة الدين ونقرأ كلام رب
العالمين سنيون سنويون فماذا نبنا قال له السلطان سليم
يا قانصوه والله ما كان هذا في خاطري من الاول ولا كان قصدي
شيأ من ذلك ابدا الا ان ملككم الذي هو قانصوه الغوري لما
ارسلت له وكاتبته واناذا اهب الى قتال قزلباش الرافضي ارسل
الي جوابا انا قصها واغلظ فيه علي ثم ارسلت له ثانيا لما ان بلغني
منه ما كان يفعله بالناس من المضار رات والقتل في الامراء
والاعيان فقلت له كف عن ذلك وانصف الناس من بعضهم
فان كل من كان خادما للحرمين الشريفين لا يكون الا عادلا منصفا
عاملا بالكتاب والسنة متمسكا بالشريعة فارسل لي جوابا بانه
قادم باشراره فتوجهت اليه وجردت عليه وقد نصرني الله
تعالى عليه ورمى كيده في نحره وانظر كيف القى الله تعالى فيكم
الفتنة كيف كنتم تخونون بعضكم وتفسدون فكان ذلك سببا
لزوال ملككم ولكن هذا ليس هو بقدرتي ولا بقدرتكم ولكن
هذا بتقدير الله تعالى وقد تم الامر على ذلك ولكن يا قانصوه
قد عطف الله قلبي عليك وقد امنتك على نفسك ومالك وعيالك
ولا بقي يحصل لك مني اذية ابدا فقبل الارض ودعى للسلطان
واعتذر له بانه عاجله في تلك الليلة الا لشدة ما حصل له من
القهر فيما تقدم ثم ان السلطان خيره في ان يقيم في مصر معززا
مكرما او يذهب معه الى بلاده فاختار الذهاب معه محبة
في ابن استاذه سيدي محمد بن الغوري فاخذه السلطان سليم
معه وامر عسكره باكرامه وبقي السلطان في كل يوم يطلبه
ويتحدث معه في الطريق ويعجبه كلامه وفصاحته واجوبته
ومعرفته وفضله وشجاعته وكان السلطان سليم في كل حين
يامره بان يلعب بين يديه بالرمح والسيف وانداب الحرب ويعجبه

ذلك وكان يقول لعسكره انظروا هل فيكم من احد يعرف يعمل شيئا من ذلك فقامت نفس يونس باشا الذى هو الوزير الاعظم فأغلظ فى الكلام على السلطان وقال له من بعض قوله ما الذى فعلته اخذت البلاد من الجراكسة ثم اعطيتها لهم ثانيا وعاديتهم وقتلتهم ثم صرت فيهم فما هذا الرأى فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا اطعناك فى شئ من ذلك فقامت نفس السلطان من هذا الكلام فأمر بضرب عنقه فى الوقت وقتل غالب اخصائه تبعاله ثم هرب ابن يونس باشا وبعض جماعته الى مصر فقبض عليهم خير بك ثم ارسلهم الى السلطان سليم فقتل الجميع ولما وصل الى دمشق خلع على قانبردى الغزالى واعطاه الشام اقطاعا الى ان يموت لا يؤخذ منه من ماله ولا الدرهم الواحد ثم سار الى القسطنطينية وامر بالزينة فامتثلت اهل بلاد الروم فى ذلك فأقام بها الى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن فى مدفنه الذى كان عمره فى حال حياته بمدينة القسطنطينية وكانت وفاته فى سادس شوال فكانت مدة سلطنته ثمانى سنين وثمانية اشهر وتسعة ايام ثم آل الملك لولده السلطان سليمان وكان من الملوك العادلة رحمة الله عليه ومكث فى الملك نحو ثمانية واربعين سنة وشهور لا يختل له نظام ابدا وكان ملكا كريما عادلا فاضلا ذا هيبة ووقار

ذكر خروج الغزالى نائب الشام وسلطنته بها

قال فلما بلغ قانبردى الغزالى موت السلطان سليم وقد تولى ابنه السلطان سليمان وهو شاب صغير طمعت نفسه الخبيثة فى ان يتسلطن فى الشام ويعيد الملك الى الجراكسة كما كان فى الاول ويكون هو السلطان وتعلقت آماله بالمحال فاخبر اخصاءه بما فى نفسه فقالوا له ليس لنا قدرة على ذلك ونحن فئة قليلة ولكن

ارسل

ارسل الى خيربك صاحب مصر اعلمه بذلك فان وافقك على ان
تفعل ما قلته فافعل والا فلا قدرة لك على عسكر الروم وكثرتهم
ونيرانهم فهل نسيت ما تقدم فقال لهم انما كان ذلك من
السلطان سليم وانما هذا ولد ليس له قدرة على فعل شئ من
ذلك ولا اظنه يتم سنة فى الملك وما علم انه يقيم فى الملك
ما يقرب من خمسين عاما ثم ارسل اعلم خيربك بما فى ضميره
فارسل له خيربك جوابا يحذره انه لا يفعل شيئا من ذلك
ويقول له اما ما يرضيك اقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك
فاياك ثم اياك ان تتفوه بشئ من ذلك فلم يقبل من خيربك
وسولت له نفسه الخبيثة بأن يتسلطن وارسل الى خيربك
ثانيا يقول له ان لم تطعنى على ذلك والا جردت عليك جاريتك
اما بى واما بك فلما رأى خيربك منه الجد ارسل يخادعه فى الكلام
ويقول له ان كان ولا بد وانت معول على ذلك اذهب الى حلب
وخذها فان ملكتها فانا مساعدك فيما تقدم وموافق لك على
ما تقول ولما جاء الجواب له بذلك فرح به وارسل خلف سيدى
محمد بن الامير قرقماس وقال له انظر كتابة الامير خيربك
ملك الامراء الذى تقول انه لا يوافق على شئ من ذلك فقال
له سيدى محمد والله انى لم اصدق شيأ من ذلك وانما خادعك
بهذا الكلام لما رأى منك الجد ولكن ان قبلت رأيى اترك هذا
الامر عن بالك واقعد فى حالك فقال له الغزالى الذى ظهر لى
منك انك رجل ابن ناس وغريزة مزينة فى الدلال اقعد لى انت
فى الشام واحفظ لى البلد الى ان ارجع اليك وتنظر الرجال فقال
له ها انا قاعد لك هنا واذهب حتى انظر كيف تصنع وما
اخوفنى عليك ثم ان الغزالى جرد على مدينة حلب ونفق له
عساكر من كل جنس من عرب ومن جركس ومن كرد ومن دروز

ومن سفل العالم وممن لا خير فيه وخرج من دمشق في ضجة
عظيمة من شرار الناس وممن لا يرتجى خيره ولما وصلت الاخبار
الى نائب حلب وكان اميرا من صناجق السلطان سليم رموا
لا قدرة له على تلك الجموع فما ساعده الا ان كتب بذلك كتابا
وارسله مع عشرة چاويشية الى السلطان سليمان بان يرسل
له عسكرا يرد الغزالى والا اخذت حلب من يدى وها انا
محاصرها الى ان يريد الله بامر يريده فعند ذلك امر السلطان سليمان
اياس باشا الذى كان اغاة اليكچرية مع السلطان سليم لما اخذ
مصر من الجراكسة وايضا له معرفة تامة بالغزالى وخيريك
من ذلك العهد فخرج من مدينة اسلانبول قاصدا الى مدينة
حلب واخذ خمسة الاف من اليكچرية وعشرة الاف من الاسبا هية
ومن الضربزانات والات الحرب شيئا يفوق الوصف هذا ما
كان من امر اياس باشا واما الغزالى فانه كان قبل خروجه من
دمشق الشام منع الدعاء للسلطان سليمان فى الخطبة وامر
بالدعاء له وايضا جعل السكة باسمه وتسلطن واطاعته
العساكر واهل الشام وخطب له على منابرها وامر بالزينة
فزينت له زينة لم يعهد مثلها مدة سبعة ايام ثم امر بالتيرز
الى مدينة حلب كما تقدم ولما وصل اليها وجد ابوابها قد قفلت
وطلعت الناس على سورها فلما قرب منها رموا عليه بالمدافع
والاحجار فامر بالاقامة لاجل ان يحاصرها فمكث ثلاثة اشهر
ولم يقدر على اخذها فدخل عليه الشتاء واشتد البرد فما ساعه
الا الرحيل عنها ونوى انه ان جاء الصيف يرجع اليها ولا يرجع
حتى ياخذها طيبة او غصيبة ثم امر بالرحيل فاخذ عساكر
حلب واهلها فى شتمه وسبه ولعنه وهو يسمعهم ويسمع
كلامهم وصياحهم وضحكهم عليه فرجع مخزيا مشتوما مطرودا

فلما

فلما وصل الى دمشق تفرقت تلك الجموع الى بلادهم وقد دخل
عليهم الشتاء وقاسوا من البرد والمطر مالا يوصف واما الغزالى
فانه ضاق صدره وجاءته الاخبار بان باشت حلب قد كاتب
السلطان سليمان واخبره بما فعلت وان عساكر الروم قد تقدمت
عليك مع اياس اغا وهم منتظرون الذهاب الشتاء ودخول
الصيف ويأتون اليك فى عسكر يسد الارض فانظر كيف
تصنع فان امكنك الهروب فاهرب وكان المرسل له هذا الخبر
رجلا من اصحابه من اهل حلب وسفه رأيه فعند ذلك اضطرب
حال الغزالى وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم وكتم ذلك
فى سره وبقى حيران فى نفسه كيف يصنع ان هرب ما يسهل
عليه ترك البلاد وان اقام لا قدرة له على ملاقاة الروم وقد
تشتتت منه تلك الجموع التى كان جمعها وذهبت الى بلادها
وايضا انه كان قبل ذلك لما ان اراد ان يتسلطن دبر حيلة —
وطلعت بيده وهو انه امر بعمل مولد وباشر فى عمله وامر
بان يحضره جميع عسكر دمشق الذين كانوا مع السلطان سليم
وابقاهم فى دمشق مع قانبردى الغزالى من الصناجق والاغوات
والينكجرية وغيرهم فلما اجتمعوا عنده مد لهم سماطا طويلا
لم يعمل مثله احد وجلست الاعيان فى اعلى السماط ثم من دونهم
بالترتيب الى اخر السماط فالتهوا فى الاكل وكانت مماليكه واتباعه
واقفين خلف الذين يأكلون على السماط وكل واحد منهم سيفه
تحت ثيابه وهم يتعاطون للخدمة فعند ذلك اشار لهم فخطوا
ايديهم فى الارواح الذين على السماط فما شعروا الا ورؤسهم
طائرة فوقعت رؤسهم فى الطعام فلم ينج منهم احد فقتلوهم
اجمعين وصار الطعام كله رؤسا وتلف الطعام من كثرة
الدماء والقتلى فأمر باخراجهم ورميهم خارج دمشق فأكلتهم

الذئاب والحداة والغربان ولما فعل ذلك صفت له دمشق
ولم يبق عنده من يعارضه فيما يفعله فعند ذلك تسلطن
كما تقدم ولا زال في همّ وغمّ حتى فرغ الشتاء ودفئت الدنيا
فجاءته الاخبار بأن اياس باشا قادم عليك في عساكر لا تحصى
فازداد غما الى غمّه واهر بالخروج الى ملاقاة العساكر وقال
اما يبختني واما يبختهم ولكنه ندم على ما فعل غاية الندم حيث
لا ينفعه الندم وذلك من الحمق فان الاحمق يسعى في هلاك
نفسه وهو لا يشعر واما اياس باشا فانه لما وصل الى حلب
خرج اليه نائب حلب وقابله واخبره بما فعل من قفل ابواب
البلد وانه رمى على الغزالي من اعلى الصور وانه اقام محاصرا
لهم ثلاثة اشهر ثم دخل عليه الشتاء فرجع الى دمشق وذكر
له جميع ما وقع فشكره اياس باشا على ما فعل وخلع عليه وعلى
اغاة اليكچرية الذين كانوا بحلب ثم قصد دمشق والتم عليه
عساكر كثيرة لا تحصى فانه بقي كلما دخل مدينة اخذ منها جماعة
فصار في جيش عظيم فلما وصل الى ظاهر دمشق ارسل جاويشا
بكتاب الى قانبردي الغزالي بأن يتأهب للحرب والقتال والطعن
والنزال وينظر ما تفعله الابطال واخذ يوبخه ويحيط عليه
في ذلك ومن جملة ما قال له فيه انه لو كان فيك خير كنت
لابنا جنسك فالذي ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير
لغير جنسه يا خائن يا فاجر يا غدار يا مكار واخذ يسبه سبا
مبرحا ويسود وجهه ويلعنه ويقول له انما هذه نتيجة
انقلبت عليك فسوف ترى صنع الله في غدا ان شاء الله تعالى
فلما وصل ذلك الكتاب للغزالي وقرأه ازداد غما على غمه وضاق
صدره ولم ينم تلك الليلة ولا طرق النوم جفنه وحسن زوال
النعمة عنه ولم تبق له حيلة يحتال بها ابدا فما ساعه الا ان

تأهب

تأهب للقتال اما له واما عليه وقد تحقق انه لا خلاص له من
ذلك وانه قد خسر خسرانا مبينا ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك
لاحد من خلق الله تعالى وكتم ما عنده ولما طلع النهار امر باقامة
الحرب وقد صفت عساكره ودق طبله ووقف بنفسه بين
الميمنة والميسرة فلما تم ذلك واذا بعساكر الروم قد اقبلت
صفوفا صفوفا ووقف اياس باشا وتحكم القتال فامر اياس
باشا الرماة انهم لا يرمون حتى يأذن لهم في الرمي فحطم الغزالي
على عسكر الروم حطمة واحدة فشتتهم بها ومزقهم كل ممزق
وصار يقاتل قتال من ايس من الحياة فقتل من الروم مقتلة
عظيمة فلما عاين اياس باشا ذلك امر الرماة بان ترمي بالبندق
والمدافع والضربزانات فما شعر الغزالي الا والدنيا قد انقلبت
والقيامة قد قامت وانطبق الجو من الدخان والغبار فما كانت
الا ساعة واحدة وقد ذهبت تلك العساكر والجموع وما سلم
منهم الا طويل العمر وبقي الغزالي واقفا لا يعرف كيف يصنع
ولا اين يذهب فالتفت فوجد صنجقه واقفا ليس عنده احد
فجاء الى حامل الصنجق وكان شابا شجاعا اسمه علي بالي رباه الغزالي
عنده من صغره ولكنه ليس بتركسيا فلما رآه الغزالي شجاعا قربه
اليه حتى جعله حاملا لوائه وكان يصرخ ويقول ان عليا هذا
عندي اعز من ولدي فلما رآه واقفا والصنجق بيده قال له
يا ولدي الى متى انت تقف وعساكرنا كلهم هلكوا وتشتتوا
قال له والى اين اذهب روحي قبل روحك لا افارقك حتى
تذهب روحي فشكره الغزالي على ذلك وقال له يا ولدي
ما بقي لنا غير الفرار من هذا العسكر الجرار فقال له والله يا سيدي
ما عملت فتا خيرا وما ضرك لو كنت باقيا على ما انت عليه آمنا على
نفسك وانت كنت سلطانا مخفيا سعيت في هلاك نفسك وا[illegible]

في جرتك قال ما كنت اظن ان الامر كذلك وان العساكر تقهرني
وينقلب الامر فقال له على ان العارفين قالوا من لم يحسب العواقب
ما الدهر له بصاحب فقال يا ولدي ما دام هذا الدخان
والغبار قائما اقلع هذا القميص من على رمحه وضعه في مخلاته
وارم الرمح وادفن المخلاة في هذا الكوم العالي ودعنا ننزل
عن خيلنا ونقلع لبسنا ونغير حالتنا وننجو بأنفسنا فاذا
رأونا لا يعرفونا ثم ان الغزالي نزل عن فرسه وخلع ما عليه
من اللبس والبولاد الذي لا نظير له ودفنه في التراب وبقي بطاق
القميص ورأسه مكشوفة كأنه قرندلي اذا راه من يعرفه لا يعرفه
وليطخ وجهه بالتراب وصار كأنه كان مدفونا في التراب
وطلع واما علي بالي فلما رأى ذلك قال له والله يا سيدي ليس
عندك من الرأي شيء فاننا لو كنا على ظهور خيلنا كنا هزمنا وحمينا
انفسنا حتى نخلص من محل الحرب ثم ننزل على بعد ونختفي في
مكان لا يعرفنا احد واما نزولنا في محل المعركة فلا فائدة فيه ثم
ان عليا ركب فرسه ثانيا واخذ عدته وهم بالهروب فقال له
الغزالي هكذا يا علي تذهب وتخليني للعدو فقال له وما الذي
اصنع انا قلتلك افعل بنا هذه الفعال القبيحة التي لا يفعلها
المجانين فبينما هم في هذه الحالة الا وقد انجلى الدخان يسيرا
ونظر الناس بعضهم بعضا واذا بمنادي اياس باشا ينادي كل
من جاءنا بالغزالي او برأسه اودلنا عليه او على مكانه اعطيناه
جميع ما يتمناه فدكس علي بفرسه الى نحو الميدان واذا بهم
طائفة من العسكر الاريه واليكچرية فلما وصل اليهم قال لهم انا
ادلكم على موضعه فقالوا له اين هو فقال لهم انا اعرف محله
وهو بالقرب منكم ولكن ما ادلكم عليه حتى تعاهدوني على ما اريد
قالوا له لك ذلك قال اريد ان اكون امير مبخق فاني انا الذي

حامل صنجقه وأنا من اولاد الشام ونحن طائعون للسلطان
سليم باطنا وكذلك سيدى محمد بن قرقماش فقال له الاغا
لك منا جميع ما تريد ان دللتنا عليه فقال له اتبعونى وقصدوا
نحو الغزالى وهو واقف يبرم كما تبرم القرندلية وهو يقول
هو هو وقصده بذلك حيلة منه لئلا يعرفوه فقال لهم على هو
هذا القرندلى فهو الغزالى فقالوا له انت تتمسخر بنا يا فاعل يا تارك
واخذوا يشتمونه ويسبونه وهموا بقتله فقال لهم امهلوا على أنا
بين ايديكم ان لم يكن هو الغزالى والا فرأسى عوض كلامى فقالوا
له ان الغزالى كان بآلة الحرب من الحديد قال نعم وحكى لهم ما فعل
فجاؤا اليه واحاطوا به ومسكوه وهو يهذر كالمجذوب ويقول هو
هو هو فقالوا له انت الغزالى فقال لهم بعد ان قبضوا عليه واراد وا
قتله انا رجل درويش عريان ومن اين لى ان اكون كالغزالى فتحيروا
فى امره وعلى بالى يحلف ويقول لا تصدقوه ولكن تعالوا انا ادلكم على
لبسه وفرسه وسلاحه انهم على ذلك الكوم العالى فأخذهم وذهب
بهم اليه واذا بملبوسه كله وصنجقه مدفونان فى التراب فطلعوه
ورأوه فعرفوه ورأوا فرسه واقفا عند ذلك المكان وهو ينكر
ويقول انا رجل درويش كيف تصدقوا هذا الكذاب انظروا الى
حالى فلما تحيروا فى امره قال لهم على انا اقطع رأسه واذهب بها الى
اياس باشا فانه يعرفه فاذا لم يكن هو والا فرأسى عوض عن رأسه
وجذب سيفه وضرب رأسه اطاحها واخذها فى مخلاته وقال
انا واقم الى اياس باشا واخذوا معهم ملبوسه وفرسه فلما وقعوا
بين يدى اياس باشا تقدم ذلك الاغا واخبر اياس باشا بما وقع
فقال لهم هاتوا الرأس حتى انظرها فانى اعرفه غاية المعرفة فوضعوها
بين يديه فتأملها وقال هذه رأس الغزالى بلا شك ثم قال لهم اين الذى دلكم
عليه فقالوا له هذا الرجل فسأله عن حاله فاخبره بجميع ما فعل الغزالى فعند ذلك

خلع عليه خلعة عظيمة وعمله امير صنجق وكذلك سيدي محمد بن قرقماس ومن
اغرب ما وقع ان في يوم قتل الغزالي وقف رجل على باب الجامع الازهر
ونادى بأعلى صوته يا جماعة ان الغزالي قتل اليوم فاذا لم تصدقوني فاكتبوا تاريخ
هذا اليوم فكان كما قال ذكر تاريخ قطع رأس الغزالي الخائن
فما مضى الا ايام قليلة حتى جاءت الاولاقية من عند اياس باشا الى
خير بك ملك مصر بما وقع وان الغزالي قطعت رأسه في اليوم الفلاني
وكان العاشر من ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة
ثم ان اياس باشا ارسل برأس الغزالي الى السلطان سليمان مع الاولاقية
فزينت البلاد وجعل السرور للسلطان ثم ارسل السلطان الجواب
لاياس باشا وشكره على ما فعل وامره بأن لا يمكن العسكر من ايذاء
أحد من الرعايا ويأمره باقامة الحدود على الوجه الشرعي وان يصرف
في احكامه الى آخره واما خير بك فانه لما بلغه قتل الغزالي تكدر
عيشه واوصى واعتق مماليكه فقالت زوجته تعيش رأسك
وتبقى وكانت تسمى خوند مصر بيك وكان قد تزوجها قبله الملك
الناصر محمد بن قايتباي وبقيت عازبة مدة سلطنة الغوري
الى ان تولى خير بك فتزوجها فانه لم يكن في النساء اسخى منها في
عصرها وكانت خازندارتها تسمى دولتباي وكانت خوند مصر
بيك كاتبة فقال لها ان بين عمري وعمره مدة سنة فكان كذلك
فما تم العام الا وقد مات خير بك بفرخ الجمر ودفن في تربته التي
عمرها في طريق القلعة عند باب الوزير وهي المعروفة الآن
بالخربكية وكانت الناس تسمع صراخه في القبر وهو يصيح حتى
ضجت الناس من ذلك وكان موته عبرة لمن اعتبر وهكذا الدنيا
تفعل بأهلها فهنيئا لمن اعرض عنها وقنع منها باليسير وترك الكثير
عن باله فتبا لها من دنيا غدارة غرارة وكفى ذما لها قوله سبحانه
وتعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا الآية ثم ان السلطان سليمان رحمه

الله عليه شرع في التوجه الى الغزو في سبيل الله تعالى لاخذ جزيرة
رودس فانه قد كان قوى باسهم وزاد فسادهم وارتفعت
رؤسهم بعد موت السلطان سليم وفرحوا بموته فرحا شديدا
وطمعوا في اخذ بلاد المسلمين وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بما لا
قدرة لهم عليه وظنوا ان ولده السلطان سليمان لا قدرة له
على حرب ولا غيره فاظهر الله تعالى من العدل والانصاف والخير
ما يفوق الوصف فرحمه الله تعالى ورحم اجداده الكرام وابناءه
الطاهرين والسلام ثم انه خرج بنفسه الى اخذ رودس ففتح الله
تعالى عليه باخذها وقد كان السلطان ارسل الخير بك مملوك
الامراء بمصر راية العقاب وهي من رايات سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم وعلى جميع الانبياء والمرسلين فارسل من عسكر مصر
ومن شباب مصر وجهزهم في نحو العشرين مركبا وجد السلطان
سليمان في محاصرة رودس ولما دخلوا على رودس وجدوا العسكر
مطمئنين ولما بلغ السلطان سليمان قدوم العسكر أمرهم بالدخول وكان
قد نصره الله تعالى على يدهم ولما حصل النصر اهل رودس بعمل منهم
وزينت البلدة احد عشر يوما ولما انقضى المهرجان انعم على العسكر
وامرهم بالانصراف الى اماكنهم والله سبحانه وتعالى اعلم وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم قد تم طبع هذا الكتاب
المستطاب بعون الملك الوهاب في اوائل شهر
ربيع الآخر سنة ١٢٧٨ اتمها الله بخير على
المسلمين امين وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه
وسلم

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0061880302

956.1
Ib5